تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

الأحزاب وسبأ وفاطر

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

٤ محرم ١٤٤٨ الموافق ١٩ يونيو ٢٠٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . ..**الصفحة**

سور الأحزاب......... .... ٤

سورة سبأ. ٤٢

سورة فاطر.. . . . . ٦٨

المراجع ٩٣

سورة الأحزاب

تسمية السورة

(سورة الأحزاب): هو الاسم الأساسي والوحيد في المصاحف وكتب التفسير. سُميت بذلك لاشتمالها على ذكر بعض تفاصيل "غزوة الأحزاب" (المعروفة أيضاً بغزوة الخندق)، حيث تحالفت فيها قبائل وطوائف المشركين واليهود لغزو المدينة المنورة.

وأطلق عليها بعضهم (الفاضحة) لأنها فضحت المنافقين وأبانت صفاتهم، وكشفت شدة إيذائهم للنبي ﷺ، وهنا نحتاج إلى ما يمزيها عن سورة التوبة والتي أطلق (الفاضحة) كذلك، للسبب نفسه.

وهي سورة مدنية امتدت فترت نزولها ما بين غزوة بدر إلى ما قبل صلح الحديبية، وتعالج شؤون الأسرة المسلمة وتنظيم المجتمع الإسلام.

أما عدد آياتها، فالمستقر عليه في المصاحف (٧٣) آية بلا خلاف.

سبب نزول بعض آياتها

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دخَلَ أبو بكرٍ يَستأذِنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوجَدَ النَّاسَ جُلوسًا ببابِه، لم يُؤذَنْ لأحدٍ منهم، قال: فأُذِنَ لأبي بكرٍ فدخَلَ، ثمَّ أقبلَ عُمَرُ فاستأذن فأُذِنَ له، فوجَد النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسًا حَوْلَه نِساؤه، واجِمًا ساكِتًا، فقال: لأقولَنَّ شَيئًا أُضحِكُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، لو رأيْتَ بنتَ خارِجةَ سألَتْني النَّفَقةَ، فقُمْتُ إليها فوجَأْتُ عُنُقَها! فضَحِكَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: هُنَّ حَوْلي كما ترى، يَسألْنَني النَّفَقةَ! فقام أبو بكرٍ إلى عائِشةَ يَجَأُ عُنُقَها، فقام عُمَرُ إلى حَفصةَ يجَأُ عُنُقَها، كِلاهما يقولُ: تَسألْنَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما ليس عندَه؟! فقُلْنَ: واللهِ لا نَسألُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا أبدًا ليس عِندَه. ثمَّ اعتزَلهُنَّ شَهرًا أو تِسعًا وعِشرينَ، ثمَّ نزلَتْ عليه هذه الآيةُ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا، قال: فبدأ بعائِشةَ، فقال: يا عائِشةُ، إنِّي أُريدُ أن أَعرِضَ عليكِ أمرًا أُحِبُّ ألَّا تَعجَلي فيه حتَّى تَستشيري أبوَيْكِ، قالت: وما هو يا رَسولَ اللهِ؟ فتلا عليها الآيةَ، قالت: أفيكَ يا رَسولَ اللهِ أستشيرُ أبوَيَّ؟! بل أختارُ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ، وأسألُك ألَّا تُخبِرَ امرأةً مِن نسائِك بالَّذي قُلتُ. قال: لا تَسألُني امرأةٌ مِنهُنَّ إلَّا أخبَرْتُها؛ إنَّ اللهَ لم يَبعَثْني مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا، ولكِنْ بعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا))[١].

---

١ - أخرجه مسلم (١٤٧٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

*(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا(٨))

هذه الافتتاحية المهيبة هي الدرس الأول من سورة الأحزاب تعد من أعمق مطالع السور إعجازاً؛ فهي تؤسس للمرحلة التشريعية والاجتماعية الجديدة للمجتمع المسلم في المدينة، وتفكك رواسب الجاهلية النفسية والاجتماعية عبر صياغة عقلية مسلمة جديدة.

*(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

السياق والمقصد: نزلت السورة في وقت تكالب فيه الأعداء (الأحزاب) من الخارج، والخلخلة من الداخل (المنافقين). المقصد هنا هو "تثبيت القيادة" وتحصين مقام التشريع من أي ضغط أو مساومة جاهلية حول قضايا التبني والظهار.

إشراقة بلاغية: افتتحت بـ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) دون الاسم العلم (محمد)، وفي هذا إعلاء لمقام النبوة، وإيذان بأن الأمر إلهي موجه للأمة عبر قائدها. يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ توجيه الأمر بالتقوى والنهي عن طاعة الكافرين للنبي المعصوم هو في حقيقته تعريض وتحذير لغيره من المؤمنين؛ فإذا كان النبي يؤمر بهذا، فكيف بمن دونه؟

جاء النهي (وَلَا تُطِعِ) مجزوماً بـ (لا) الناهية، وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين. والنهي هنا يفيد "الدوام والاستمرار" على عدم الطاعة، وليس معناه أنه كان يطيعهم. ثم ختمت الآية بالجملة الاسمية المؤكدة بـ (إنّ) و(كان) (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) لتعليل النهي؛ أي: هو عليم بما يدبرونه، حكيم فيما يشرعه لك من قطع دابر عاداتهم.

ذكر البغوي في تفسيره أن قريشا بعد غزوة أحد أرسلت وفدا تفاوض فيه النبي صلى الله عليه وسلم على ترك سب آلهتهم، لكن لم يثبت حديثا صحيحا، ولا خبرا

أكده المؤرخون في هذا التفاوض، ما عدا قصة إسلام ثمامة بن أثال ومنعه الميرة عن قريش ثم بعثوا للنبي صلى الله عليه وسلم ليأمر ثمامة أن يعيد عليهم الميرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَعَثَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيلًا قِبَلَ نَجدٍ، فجاءَت برَجُلٍ مِن بَني حَنيفةَ يُقالُ له: ثُمامةُ بنُ أُثالٍ، فرَبَطوه بساريةٍ مِن سَواري المَسجِدِ، فخَرَجَ إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما عِندَكَ يا ثُمامةُ؟ فقال: عِندي خَيرٌ يا مُحَمَّدُ؛ إن تَقتُلْني تَقتُلْ ذا دَمٍ، وإن تُنعِمْ تُنعِمْ على شاكِرٍ، وإن كُنتَ تُريدُ المالَ فسَلْ منه ما شِئتَ، فتُرِكَ حتَّى كان الغَدُ، ثُمَّ قال له: ما عِندَكَ يا ثُمامةُ؟ قال: ما قُلتُ لَكَ: إن تُنعِمْ تُنعِمْ على شاكِرٍ، فتَرَكَه حتَّى كان بَعدَ الغَدِ، فقال: ما عِندَكَ يا ثُمامةُ؟ فقال: عِندي ما قُلتُ لَكَ، فقال: أطلِقوا ثُمامةَ. فانطَلَقَ إلى نَجلٍ قَريبٍ مِنَ المَسجِدِ، فاغتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسجِدَ، فقال: أشهَدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، يا مُحَمَّدُ، واللهِ ما كان على الأرضِ وجهٌ أبغَضَ إليَّ مِن وجهِكَ، فقد أصبَحَ وجْهُكَ أحَبَّ الوُجوهِ إليَّ، واللهِ ما كان مِن دينٍ أبغَضَ إليَّ مِن دينِكَ، فأصبَحَ دينُكَ أحَبَّ الدِّينِ إليَّ، واللهِ ما كان مِن بَلَدٍ أبغَضَ إليَّ مِن بَلَدِكَ، فأصبَحَ بَلَدُكَ أحَبَّ البِلادِ إليَّ، وإنَّ خَيلَكَ أخَذَتني وأنا أُريدُ العُمرةَ، فماذا تَرى؟ فبَشَّرَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَرَه أن يَعتَمِرَ، فلَمَّا قدِمَ مَكَّةَ قال له قائِلٌ: صَبَوتَ! قال: لا، ولَكِن أسلَمتُ مع مُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا واللهِ، لا يَأتيكُم مِنَ اليَمامةِ حَبَّةُ حِنطةٍ حتَّى يَأذَنَ فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم [١].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: جاء أبو سفيانَ بنُ حربٍ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فقال: يا محمدُ! أنشدُكَ اللهَ والرحِمَ، فقد أكلْنا العِلْهِزَ – يعني: الوبرَ – والدمَ، فأنزلَ اللهُ: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) [المؤمنون:٧٦] [٢].

فهل سألوه شيئا حول أصنامهم في هذا الوفد؟ وهل نزلت افتتاحية السورة متأخرة؟ فإن قصة ثمامة قيل في السنة السادسة، محايثة أو مشارفة لغزوة الخندق، وقيل: معناه: اتقل الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم.

*(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)، إشراقة بلاغية: بعد أن نهاه عن طاعة البشر (الكافرين والمنافقين)، لم يتركه دون بديل ، بل أمره بالبديل الإيجابي المطلق: (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ). يلحظ ابن عاشور – رحمه الله - في

---

١ - أخرجه البخاري (٤٣٧٢) واللفظ له، ومسلم(١٧٦٤) وأبو داود (٢٦٧٩)، وابن حبان (١٢٣٩) باختلاف يسير.

٢ - أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٥٢)، وابن حبان (٩٦٧) واللفظ له، والطبراني (٣٧٠/١١)(١٢٠٣٨)

(التحرير والتنوير) تقديم "ما يوحى" للاهتمام والتعظيم، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (يُوحَىٰ) للعلم بالفاعل (وهو الله).

الالتفات في ختام الآية من الخطاب المفرد للنبي إلى الخطاب الجمعي للأمة (بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (وفي قراءة بالياء "يعملون"). هذا الالتفات يوضح -كما يذكر سيد قطب في الظلال- أن المعركة ليست معركة شخصية للنبي، بل هي معركة الأمة وصياغتها الربانية؛ فالجميع تحت رقابة الخبير سبحانه.

*(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا)، المقصد والبيان: لما كان اتباع الوحي ومخالفة عادات المجتمع الجاهلي (كالتبني والظهار) يحتاج إلى شجاعة وتضحية ومواجهة لحملات السخرية والتشويه، جاء الأمر بالتوكل.

إشراقة بلاغية: (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) الباء في "بالله" زائدة لتأكيد الفاعل (الاسم الجليل)، و(وَكِيلًا) منصوب على التمييز أو الحال. هذا الأسلوب يفيد قصر الكفاية التامة عليه سبحانه، وفي التنكير "وكيلاً" إشاعة للتعظيم؛ أي كفى به وكيلاً يتدبر أمرك ويحميك من كيدهم.

*(مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)

المقصد والتحليل السياقي: هذه الآية هي "حجر الأساس التكويني" في السورة. إنها إعلان إلهي صارم بإبطال الأوهام والتقاليد الزائفة التي لا تتفق مع حقائق الوجود: (ازدواجية الولاء، والظهار، والتبني).

إشراقة بلاغية: (لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ): دخول "مِن" الاستغراقية لتوكيد النفي المطلق. وذكر "في جوفه" تأكيد حسي لبيان استحالة الجمع بين عقيدتين أو ولائين متناقضين (إسلام ونفاق). ويوضح ابن القيم – رحمه الله - في هداياته أن القلب الواحد لا يتسع لحقيقتين متضادتين؛ فلا يجتمع في قلب عبدٍ محبة الله المطلقة وطاعة الكافرين.

ثم انتقل من الحقيقة العضوية النفسية إلى إبطال العادات الاجتماعية المقاسة عليها: الزوجة ليست أمّاً بمجرد لفظ الظهار، والدعي (الابن المتبنى) ليس ابناً.

(ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ): تعبير بلاغي تهكمي عجيب! فالقول طبيعي أن يكون بالفم، لكن ذكره هنا يفيد أن هذا الادعاء (التبني والظهار) هو مجرد حركات لسان وهواء يخرج من الفم، لا رصيد له من الحقيقة الواقعية ولا النسب الدموي.

أمام هذا الزيف، يقرر النص: (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ)؛ فالحق ثابت والباطل كلمات جوفاء.

*(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

إشراقة بلاغية: (ادْعُوهُمْ) فعل أمر يفيد الوجوب التشريعي الفوري لإلغاء التبني (كما حدث في قضية زيد بن حارثة). هُوَ أَقْسَطُ اسم تفضيل (من القسط وهو العدل) وجاءت صيغة التفضيل هنا لبيان أن حكم الله هو العدل المحض في مقابل جور الجاهلية.

التفريق الدقيق بين الخطأ والعمد: (فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ). إسناد التعمد إلى "القلوب" فيه لفتة تربوية لسانية عميقة؛ فالمدار في التكليف والمؤاخذة على انطواء القلب وعزيمته، وهذا ما ركز عليه محمد قطب – رحمه الله - في كتاباته حول التربية الإسلامية وتطهير البواطن.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ الله تعالى وضع عن أُمَّتي الخطأَ، والنسيانَ، وما اسْتُكرِهوا عليه [١].
وفي رواية: رُفِعَ عن أُمَّتي الخطأَ والنِّسيانَ وما استُكْرِهوا عليهِ [٢].

*(النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

البلاغة والنظم التشريعي: هذه الآية هي "قانون صياغة الروابط الجديدة" بعد هدم روابط الجاهلية الزائفة.

(النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ): جملة اسمية تقرر ولاية تشريعية وعاطفية مطلقة. النبي مقدم على ذات الإنسان ونفسه في الطاعة والمحبة.

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: ما مِن مُؤمِنٍ إلَّا وأنا أولى به في الدُّنيا والآخِرةِ، اقرَؤوا إن شِئتُم: (النَّبيُّ أولى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم)، فأيُّما مُؤمِنٍ ماتَ وتَرَكَ مالًا فليَرِثْه عَصَبَتُه مَن كانوا، ومَن تَرَكَ دَينًا أو ضَياعًا فليَأتِني؛ فأنا مَولاه ..[٣]

---

١ - أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨٢٧٣)، وابن حبان (٧٢١٩) باختلاف يسير، وصححه الألباني.
٢ - قال أحمد شاكر: في إسناده رجل ضعيف ولكن معناه ثابت صحيح.
٣ - أخرجه البخاري (٢٣٩٩) واللفظ له، ومسلم(١٦١٩) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه

(وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ): تشريف وتكريم معنوي (في الحرمة والاحترام لا في المحرمية والنكاح)، وهو تعويض نفسي للمجتمع بعد نزع مسميات الأمومة الزائفة في الظهار.

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ): إبطال لإرث المؤاخاة والتبني، وإرجاع الحقوق المالية للقرابة الدموية الحقيقية.

استثناء (إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا) هو استثناء متصل أو منقطع يفتح الباب للوصية والإحسان المالي لغير الأقارب (كالتبني القديم أو الموالاة) لئلا تنقطع أواصر المودة فجأة، بل تُقنن عبر "المعروف" (الوصية) لا عبر فرض الإرث.

*(إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا، لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

إشراق بلاغية: يربط ابن تيمية – رحمه الله - في فتاويه بين المحن الكبرى والعهود؛ فتكاليف سورة الأحزاب وتغيير المنظومة الاجتماعية بحاجة إلى عزم صلب. لذا، تذكر الآية الميثاق التاريخي العظيم.

تقديم النبي ﷺ (وَمِنكَ) على أولي العزم من الرسل الذين جاؤوا قبله تاريخياً (نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ...)؛ هو تقديم للمكانة والشرف، ولأن الخطاب موجه إليه أصالة، ولبيان أنه إمام هذا الميثاق وخاتمهم.

الوصف والبيان: وصف الميثاق بـ (غَلِيظًا) يسميه البلاغيون: استعارة حسية للأمر المعنوي تفيد شدة وثوقه وثقله وضخامة المسؤولية المترتبة عليه.

(لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ). يسأل الصادقين؟ نعم! فإذا كان الصادق سيُسأل يوم القيامة عن صدقه (كيف وفى به وعمل بمقتضاه)، فكيف يكون حال الكاذب والمنافق؟ هنا يهتز الوجدان البشري -كما عبر سيد قطب رحمه الله- أمام جدية التكليف الإلهي، لينتهي المطلع بوعيد الكافرين بالإعداد والعذاب الأليم، مفككاً أي رغبة في مداهنتهم أو طاعتهم.

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا

تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا(٢٧))

هذه الآيات في الدرس الثاني من سورة الأحزاب ترسم بالكلمات ملمحاً من أعظم المشاهد التحولية في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ وهي غزوة الخندق (الأحزاب). سنبحر في رحلة تدبرية تجمع بين عمق التفسير السياقي، والتحليل اللغوي والنحوي، واللمحات البلاغية والمقاصدية،

الابتداء بالتذكير والمنّة الكونية: *(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

السياق والمقصد: تفتتح السورة استعراض المعركة بطلب "الذكر"، والمقصد هنا ليس مجرد التذكر الذهني بل الاستحضار الوجداني للنعمة التي تجلت في دفع الهلاك المحدق؛ تمهيداً لتلقي الأحكام التشريعية اللاحقة في السورة من موقع الامتنان التام.

(إِذْ جَاءَتْكُمْ): "إذْ" ظرفية متعلقة بـ "اذكروا" أو بـ "نعمة"، وجاءت الجملة الفعلية بعدها لتصوير الحركة والمفاجأة.

التنكير في جُنُودٌ: يفيد التهويل والكثرة (عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان واليهود).

إشراقة بلاغية تربوية: المقابلة بين المادي والغيب: جاءت جنود الأرض المادية (جُنُودٌ)، فقابلها الرد الإلهي بعنصرين: مادي محسوس عاصف (رِيحًا)، وغيبي غير مرئي (وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا).

خُتمت الآية بـ (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) بتقديم العمل على الرؤية؛ ليشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن الله مطّلع على حفركم للخندق، وصبركم، وجدكم، فلم يضيع هذا الجهد المادي بل كلله بالمدد الغيبي.

التصوير النفسي والمادي للحصار: *(إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

(مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ): "أسفل" اسم مجرور بـ "من" وعلامة جره الفتحة لأنه ممنوع من الصرف (على وزن أفعل)، والمقصود جهتا العلو (شرق المدينة/غطفان) والسفول (غربها/قريش).

(الظُّنُونَا): الألف هنا هي ألف الإطلاق لمناسبة الفاصلة القرآنية، والجمع هنا يشير إلى تنوع الظنون وتشتتها بين شاكّ وموقن وثابت، فظن المنافقون استئصال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه – رضي الله عنهم – وظن المؤمنون النصر والظفر لهم.

عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»[١]..

إشراقة بلاغية: الكناية والتشخيص النفسي: (وإذ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) كناية عن الحيرة والدهشة، (وبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ): يسمي البلاغيون هذا الأسلوب: تمثيل

---

١ - أخرجه مسلم (١٧٨٨) .

مجازي بديع ومبهر لحالة الرعب والجهد البدني، حيث ينتفخ الرئتان من شدة الخوف والأنفاس المتلاحقة حتى كأن القلب يرتفع ليغلق المجرى التنفسي.

ويصف سيد قطب – رحمه الله - هذا المشهد بأنه رسم بالكلمات لحالة الخوف البشري الطبيعي، القرآن هنا لا يزيف الواقع، بل يثبت أن المؤمنين بشر يزلزلهم الخوف، لكن الفارق في حقيقة ما يظنونه بالله مقارنة بالمنافقين.

الغاية الابتلائية والفرز الإلهي: *(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا).

السياق والمقصد: المقصد الكلي هنا هو "التمحيص". فالنصر لا يأتي هيّنا سلساً، بل بعد زلزلة تقتلع بذور النفاق من الصف.

(هُنَالِكَ): اسم إشارة للمكان البعيد، واستعماله هنا للإشارة إلى "عظم الوقت والشرط والظرف"، كأنه موقف ناءٍ شاهق في الشدة.

(وزُلْزِلُوا زِلْزَالًا): مفعول مطلق مؤكد لعامله، ووصفه بـ (شَدِيدًا) يجسد الارتجاف والاضطراب النفسي والمادي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قُلْنا يومَ الخَنْدَقِ يا رسولَ اللهِ هل مِن شيءٍ نقولُ قد بلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ قال نَعَمْ اللهمَّ استُرْ عَوْراتِنا وآمِنْ رَوْعاتِنا قال فضرَب اللهُ عَزَّ وجَلَّ وجوهَ أعدائِنا بالرِّيحِ هزَمهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ بالرِّي [١].

يذكر ابن القيم – رحمه الله - أن الابتلاء هنا كالقولبة للذهب، لا بد من النار ليتميز الخبث. ويشير البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) إلى أن البناء لما لم يسم فاعله في (ابْتُلِيَ) (وزُلْزِلُوا) يركز الانتباه على "الفعل والحدث" لا الفاعل، لبيان شمولية الزلزال لكل مسلم في الخندق.

سقوط الأقنعة (الخطاب الإحباطي): *(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

إشراقة بلاغية: العطف بين (الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ): يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنهم صنفان؛ المنافقون المصممون على الكفر سراً، وأمّا (الذين في قلوبهم مرض) فهم ضعاف الإيمان والشاكون الذين تزلزلوا عند الصدمة الأولى.

أسلوب القصر بـ (مَّا ... إِلَّا): (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) قصر قلب، ردوا به على وعود النبي ﷺ بفتح فارس والروم وهم يحفرون الخندق.

---

١ - أخرجه أحمد (١٠٩٩٦)، والمجاملي في الأمالي (٧) واللفظ لهما، وابن الأعرابي في معجم شيوخه (٧٨٤) باختلاف يسير، وقال الهيثمي في الزوائد: رجاله ثقات.

العمق المقاصدي والتاريخي: النفوس المريضة تقرأ الواقع قراءة مادية بحتة؛ فإذا انقطعت الأسباب المادية كفرت بالوعد الغيبي واعتبرته ضرباً من "الغرور" (الخداع).

الحرب النفسية والتخذيل الميداني: *(وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)

عدولهم عن اسم "المدينة" إلى يَثْرِبَ: نداء مقصود، فيه تنصل من الصبغة الإسلامية للمدينة، وإرجاعها إلى عهد الجاهلية والقبلية للتأثير النفسي على الأنصار.

(لَا مُقَامَ لَكُمْ): بفتح الميم (أي لا إقامة) وبضمها (أي لا مكان للوقوف والثبات).

(عَوْرَةٌ): أي مكشوفة وغير محمية للعدو.

البلاغة والرد الإلهي القاطع: استخدام الجملة الاسمية والنفية التوكيدية: (وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ)، (مع الباء الزائدة لتوكيد النفي) يفضح عورات نفوسهم هم، وليس بيوتهم.

(إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا): قصر إرادتهم على الفرار، هتكاً لأستار الكذب والاعتذار البارد.

فضح الهشاشة العقدية: *(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا)

إشراقة بلاغية: (دُخِلَتْ): بناء الفعل لما لم يسم فاعله، والنائب عن الفاعل هو ضمير مستتر يعود على البيوت/المدينة. وفيه إشارة لسهولة اقتحامها لو حدث.

(سُئِلُوا الْفِتْنَةَ): أي لو طلب منهم الأحزاب العودة للشرك أو خيانة المسلمين.

(لَآتَوْهَا): بالمد (أي لأعطوها وسارعوا إليها) وقرئت (لأتَوْها) بالقصر أي لجاءوها، (وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا) ما احتبسوا عن إجابة الشرك، (إِلَّا يَسِيرًا): قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن والفراء: وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا [١]..

تبين الآية "التذبذب الوجداني" للمنافق؛ هو يقاتل ويختلق الأعذار هرباً من بذل الجهد للدين، لكنه عند الفتنة والردة لا يأخذ نفساً طويلاً في التفكير، بل يقع فيها سريعاً دون أي تردد (وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا).

ميثاق غليظ منقوض: *(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا)

---

١ - تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص٩٤٩).

إشراقة بلاغية: تصدير الجملة باللام الموطئة للقسم و"قد" (وَلَقَدْ) لتوكيد وقوع العهد (الذي كان في غزوة أحد أو بيعة العقبة).

(لا يوَلُّونَ الْأَدْبَارَ): كناية عن الهزيمة والفرار، فالمدبر يعطي ظهره (دبره) للمعركة.

(وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا): تذييل للآية يحمل وعيداً مرعباً؛ فالعهد هنا شخص يجسد ويسأل صاحبه ويسأل الله عنه.

مناقشة عقلية وسنن لا تتبدل: *(قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا، قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا).

إشراقة بلاغية: (قُلْ): أمر بالخطاب المباشر الحاسم لقطع لجاجهم، (إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً): هنا طباق (سوءاً)، (رحمة)، لكن ابن عاشور – رحمه الله - يلحظ لطيفة بلاغية ودقة عقدية: العاصم يكون من السوء، فكيف قال: (أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً)؟ المعنى: من يمنعكم من رحمة الله إن أرادها بكم؟ أو هو احتباك بليغ تقديره: من يعصمكم إن أراد بكم سوءاً، ومن يمنعكم إن أراد بكم رحمة.

وهو قريب من قوله تعالى: *﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٥٤]، أي: (إن يشأ يرحمكم): إن يرد هدايتكم وتوفيقكم للإيمان يتفضل عليكم برحمته فيغفر لكم، أو إن يشأ يعذبكم :إن يشأ أن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على الشرك، فيعذبكم بكفركم، والله أعلم.

المقصد السنني: الموت حتمية، والفرار لا يطيل العمر، وإن طال فمتاع الحياة الدنيا قليل عابر، والقدر الإلهي نافذ لا عاصم منه.

رسم مقذع للمثبطين: *(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ): حال منصوبة من واو الجماعة في الآية السابقة. والشح هنا ضنّ بالجهد والمال والنصيحة والمودة للمؤمنين.

(تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ): تشبيه تمثيلي متحرك مبهر لحالة الجبن، حيث يفقد الجبان السيطرة على حركة حدقة عينه فتدور رعباً كالمحتضر.

(سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ): "سلق الشيء: أحرقه، سلق الطعام: أغلاه بالماء الحار دون أن يضاف إليه شيء من الدهن أو التوابل، وسلقه بلسانه أو بكلامه: قال له ما

يؤذيه، فقد كانوا يطعنون المؤمنين بالكلام اللامع الجارح بعد انتهاء المعركة؛ ادعاءً للبطولة الزائفة وطمعاً في المغانم.

هذه الآية تمثل قمة الإعجاز النفسي في تصوير طائفة "المعوّقين". يجمعون بين جبن رعديد وقت اللقاء، وصوت زاعق جهير وبذاءة لسان وقت توزيع المكاسب والغنائم (أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ).

النهاية المقاصدية: (فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ)، يقال: حبطت الدابة: إذا انتفخ بطنها من كثرة الأكل، أو من أكل ما يؤذيها، وحبط العمل: أي فسد، وإحباط أعمالهم أو حبوطها ناتج من فقدان أصل الإيمان، والتعويق يورث الخسران الشامل.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قامَ على المِنبَرِ، فقال: إنَّما أخشى علَيكُم مِن بَعدي ما يُفتَحُ علَيكُم مِن بَرَكاتِ الأرضِ، ثُمَّ ذَكَرَ زَهرةَ الدُّنيا، فبَدَأ بإحداهما، وثَنَّى بالأُخرى، فقامَ رَجُلٌ فقال: يا رَسولَ اللهِ، أويَأتي الخَيرُ بالشَّرِّ؟! فسَكَتَ عنه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُلنا: يوحى إليه، وسَكَتَ النَّاسُ كَأنَّ على رُؤوسِهِمُ الطَّيرَ، ثُمَّ إنَّه مَسَحَ عن وجهِهِ الرُّحَضاءَ، فقال: أينَ السَّائِلُ آنِفًا؟ أوَخَيرٌ هو؟! -ثَلاثًا- إنَّ الخَيرَ لا يَأتي إلَّا بالخَيرِ، وإنَّه كُلَّما يُنبِتُ الرَّبيعُ ما يَقتُلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلةَ الخَضِرِ، أكَلَت حتَّى إذا امتَلَأت خاصِرَتاها، استَقبَلَتِ الشَّمسَ، فثَلَطَت وبالَت، ثُمَّ رَتَعَت، وإنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ، ونِعمَ صاحِبُ المُسلِمِ لمَن أخَذَه بحَقِّه، فجَعَلَه في سَبيلِ اللهِ، واليَتامى والمَساكينِ وابنِ السَّبيلِ، ومَن لَم يَأخُذْه بحَقِّه، فهو كالآكِلِ الذي لا يَشبَعُ، ويَكونُ عليه شَهيدًا يَومَ القيامةِ [١]..

استمرار الهلع والجبن المتأصل: *(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)

إشراقة بلاغية: (بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ): البادية هي المكان خلاف الخاضرة والبادون هم سكان البادية خلافا لسكان الحاضرة وهي المدن والقرى الكبيرة. المنافق من شدة فزعه يتمنى لو انسلخ من مجتمع المدينة المتحضر وعاش هائماً في فجاج الصحراء مع الأعراب الذين هم سكان البادية، متسقطاً أخبار المعركة من بعيد (يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ) بدلاً من خوضها.

(ولو كانوا فيكم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا): "قليلاً" هنا قد تعني زمناً يسيراً، أو قتالاً رياءً لا نفع فيه.

واسطة العقد والميزان المصطفوي: *(لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

---

١ - أخرجه البخاري (٢٨٤٢) ومسلم (١٠٥٢) باختلاف يسير.

التناسب البقاعي والمقصد الكلّي: بعد أن رسم القرآن الصورة المشوهة والمنفرة للمنافقين، وضع هنا "النموذج الأعلى" والمقياس الفارق. الالتفات إلى الرسول ﷺ كقدوة حية وسط هذا الإعصار المادي.

القراءة النحوية: (أُسْوَةٌ): قرئت بضم الهمزة وبكسرها، وهي القدوة والاتباع. (لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ): "لمن" بدل من الضمير المستتر في "لكم" أو من "لكم" بإعادة الجار، وهي تخصص أن الانتفاع بالقدوة مشروط بوجود هذا المحرك القلبي (رجاء الله واليوم الآخر والذكر الكثير).

ففي الآية إضراب عن أخلاق وأفعال ونوايا وخبايا المنافقين والالتفات إلى الأسوة الحسنة، فكما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) [الأنعام:٩٠]، أمر المؤمنين هنا أن يعرضوا عن حال المنافقين ولا يطيلوا التفكر في شأنهم، بل يهتموا باقتدائهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم الذي ثبت معهم في هذه المعركة وحفر معهم وجاع معهم، وهم يشاهدونه ويقتدونه به صلى الله عليه وسلم ويفدونه بأرواحهم رضي الله عنهم.

المشهد المقابل.. شموخ الإيمان: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

إشراقة بلاغية، المقابلة الطردية: هذه مقابلة صارخة مع الآية التي ذكرت مقولة المنافقين: (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا).

المنافق رأى الأحزاب فقال: خديعة وغرور. وأمّا المؤمن فرأى الأحزاب وتفاقم الخطب فقال: ه(ذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) (أي وعد الابتلاء الذي يعقبه النصر) (وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلاّ إيمانا وتسليما).

(وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا): فاعل "زادهم" هو رؤية الأحزاب والشدائد. والشدة هنا مادة تغذّي الإيمان عند المؤمن الصادق، تماماً كما تغذي النار جودة المعدن الصلب.

الوفاء بالعهود والجزاء العادل: (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ، لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)

إشراقة بلاغية: تقديم الجار والمجرور م(نَ الْمُؤْمِنِينَ) وتنكير رِجَالٌ: يفيد التبعيض والتعظيم؛ ليس كل الذكور رجالاً، بل هؤلاء صفوة تعالت بصدقها.

(قَضَىٰ نَحْبَهُ): النحب في اللغة هو النذر أو الموت في سبيل الله، وصارت كناية بديعة عن الاستشهاد الوفي بالعهد.

(وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا): استخدام المفعول المطلق ينفي أي شائبة من شوائب التغيير أو النكوص، بخلاف المنافقين.

مقصد العدالة الإلهية والرحمة: (لِّيَجْزِيَ اللَّهُ...): اللام للتعليل، تبيّن أن الحكمة من كل هذه المحنة والزلزلة الشديدة هي التميز واستحقاق الجزاء. ولطيفة البلاغة في تعذيب المنافقين تعليقه بمشيئته إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ لفتح باب الأمل حتى لبعض هؤلاء ليعودوا إلى الصف المسلم، وختمت بالرحمة والمغفرة الغالبة.

الحصاد الإلهي ونهاية المعركة الكونية: *(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا، وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

إشراقة بلاغية: (بِغَيْظِهِمْ): الباء هنا للملابسة، أي انصرفوا متلبسين بغيظهم وحسرتهم دون ظفر مادي أو معنوي (لَمْ يَنالوا خَيْرًا).

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ): جملة تلخص زوال المحنة بلا صدام عسكري مباشر كبير، بفضل الريح والجنود الغيبية.

(صَيَاصِيهِمْ): الصياصي هي الحصون والقلاع المنيعة (والمقصود هنا يهود بني قريظة الذين غدروا بالمسلمين). وكلمة صياصي مشتقة من قرون الثيران التي يدافع بها عن نفسه، مستعارة للحصن.

(فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا): تقديم المفعول به فَرِيقًا على الفعلين (تقتلون وتأسرون) للاهتمام والتشويق، وفيه روعة الفاصلة القرآنية وتوازن الإيقاع.

المقصد السنني والختام الكلي للقصة: تنتهي المعركة بـ (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ): نقل الملكية الإلهي (الإيراث) تعبيراً عن انتقال السيادة والتمكين للمسلمين بعد هذه الهزة العنيفة.

عن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما: أُصيبَ سَعدٌ يَومَ الخَندَقِ؛ رَماه رَجُلٌ مِن قُرَيشٍ يُقالُ له: حِبَّانُ بنُ العَرِقةِ، رَماه في الأكحَلِ، فضَرَبَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيمةً في المَسجِدِ ليَعودَه مِن قَريبٍ، فلَمَّا رَجَعَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الخَندَقِ وضَعَ السِّلاحَ واغتَسَلَ، فأتاه جِبريلُ عليه السَّلامُ وهو يَنفُضُ رَأسَه مِنَ الغُبارِ، فقال: قد وضَعتَ السِّلاحَ؟ واللهِ ما وضَعتُه، اخرُجْ إليهم، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فأينَ؟ فأشارَ إلى بَني قُرَيظةَ، فأتاهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فنَزَلوا على حُكمِه، فرَدَّ الحُكمَ إلى سَعدٍ، قال: فإنِّي أحكُمُ فيهم: أن تُقتَلَ المُقاتِلةُ، وأن تُسبى النِّساءُ والذُّرِّيَّةُ، وأن تُقسَمَ أموالُهم. [وفي روايةٍ]: أنَّ سَعدًا قال: اللهُمَّ إنَّكَ تَعلَمُ أنَّه ليس أحَدٌ أحَبَّ إليَّ أن أُجاهِدَهم فيكَ، مِن قَومٍ كَذَّبوا رَسولَكَ صلَّى

اللهُ عليه وسلَّم وأخرَجوه، اللهُمَّ فإنّي أظُنُّ أنَّكَ قد وضَعتَ الحَربَ بينَنا وبينَهم، فإن كان بَقيَ مِن حَربِ قُرَيشٍ شَيءٌ فأبقِني له؛ حتَّى أُجاهِدَهم فيكَ، وإن كُنتَ وضَعتَ الحَربَ فافجُرْها واجعَلْ مَوتَتي فيها، فانفَجَرَت مِن لَبَّتِه، فلَم يَرُعْهم -وفي المَسجِدِ خَيمةٌ مِن بَني غِفارٍ- إلَّا الدَّمُ يَسيلُ إليهم، فقالوا: يا أهلَ الخَيمةِ، ما هذا الذي يَأتينا مِن قِبَلِكُم؟ فإذا سَعدٌ يَغذو جُرحُه دَمًا، فماتَ منها رَضيَ اللهُ عنه. أُصيبَ سَعدٌ يَومَ الخَندَقِ؛ رَماه رَجُلٌ مِن قُرَيشٍ يُقالُ له: حِبَّانُ بنُ العَرِقةِ، رَماه في الأكحَلِ، فضَرَبَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيمةً في المَسجِدِ ليَعودَه مِن قَريبٍ، فلَمَّا رَجَعَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الخَندَقِ وضَعَ السِّلاحَ واغتَسَلَ، فأتاه جِبريلُ عليه السَّلامُ وهو يَنفُضُ رَأسَه مِنَ الغُبارِ، فقال: قد وضَعتَ السِّلاحَ؟ واللهِ ما وضَعتُه، اخرُجْ إليهم، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فأينَ؟ فأشارَ إلى بَني قُرَيظةَ، فأتاهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فنَزَلوا على حُكمِه، فرَدَّ الحُكمَ إلى سَعدٍ، قال: فإنّي أحكُمُ فيهم: أن تُقتَلَ المُقاتِلةُ، وأن تُسبى النِّساءُ والذُّرِّيَّةُ، وأن تُقسَمَ أموالُهم. [وفي روايةٍ]: أنَّ سَعدًا قال: اللهُمَّ إنَّكَ تَعلَمُ أنَّه ليس أحَدٌ أحَبَّ إليَّ أن أُجاهِدَهم فيكَ، مِن قَومٍ كَذَّبوا رَسولَكَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأخرَجوه، اللهُمَّ فإنّي أظُنُّ أنَّكَ قد وضَعتَ الحَربَ بينَنا وبينَهم، فإن كان بَقيَ مِن حَربِ قُرَيشٍ شَيءٌ فأبقِني له؛ حتَّى أُجاهِدَهم فيكَ، وإن كُنتَ وضَعتَ الحَربَ فافجُرْها واجعَلْ مَوتَتي فيها، فانفَجَرَت مِن لَبَّتِه، فلَم يَرُعْهم -وفي المَسجِدِ خَيمةٌ مِن بَني غِفارٍ- إلَّا الدَّمُ يَسيلُ إليهم، فقالوا: يا أهلَ الخَيمةِ، ما هذا الذي يَأتينا مِن قِبَلِكُم؟ فإذا سَعدٌ يَغذو جُرحُه دَمًا، فماتَ منها رَضيَ اللهُ عنه [١]..

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَ الأحزابِ: لا يُصَلِّيَنَّ أحَدٌ العَصرَ إلَّا في بَني قُرَيظةَ. فأدرَكَ بَعضُهمُ العَصرَ في الطَّريقِ، فقال بَعضُهم: لا نُصَلِّي حتَّى نَأتيَها، وقال بَعضُهم: بَل نُصَلِّي، لَم يُرِدْ مِنَّا ذلك، فذُكِرَ ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَم يُعَنِّفْ واحِدًا منهم [٢]..

(وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا): نبوءة وبشارة مستقبلية بفتوح تالية (كخيبر أو فارس والروم) تؤكد تبدل ميزان القوى تماماً، فمن كان محاصراً بالأمس مرعوباً، بات اليوم وارثاً وقائداً، مصداقاً لقول النبي ﷺ بعد الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا".

وفيه تعريض للمنافقين الذين قالوا: (ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا) وقالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط [٣].

---

١ - أخرجه البخاري (٤١٢٢) ومسلم (١٧٦٩).
٢ - أخرجه البخاري (٤١١٩) ومسلم (١٧٧٠) باختلاف يسير.
٣ - انظر ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣هـ): السيرة النبوية لابن هشام(ج٢/ص٢٢٢)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.

*(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(٣٠) ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(٣٥))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة الأحزاب تمثل منعطفاً تشريعياً وتربوياً حاسماً في بناء بيت النبوة، ومنه إلى بناء المجتمع الإسلامي الأول.

التخيير والمفاصلة الكبرى: *﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

السياق والمقاصد: السبب والسياق: جاءت الآيات بعد انتصارات المسلمين (الأحزاب وبني قريظة)، وانفتاح الدنيا عليهم نسبياً. تطلع بيت النبوة إلى شيء من السعة، فأراد الله أن يظل هذا البيت "منارة تجرّد" لا تتدنس بالتعلق بالماديات.

المقصد: تأسيس مبدأ التسامي القيادي. من رضي أن يكون في مقام القدوة، فعليه ضريبة التخلي عن حظوظ النفس المحضة.

إشراقة بلاغية: النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: لم يقل "يا محمد"، وهو إشعار لعقولهن وقلوبهن بمقام النبوة والموقع الذي هُنّ فيه، فالخطاب معلّق بصفة الرسالة والقيادة.

البلاغة وسيكولوجية العرض: قدّم الله شرط الدنيا: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزينتها فَتَعَالَيْنَ﴾، وفي هذا ما يسميه ابن عاشور – رحمه الله - "تعجيل التنزيه لرسوله"، أي إن كنتنّ تردن المادة فلا مكان لكنّ في هذا البيت، وتعالين لترتيب الفراق بإحسان.

الصيغة الصرفية: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾. استعمال التضعيف (متّع، سرّح) يفيد المبالغة في الإكرام عند الفراق؛ لئلا يُظن أن الفراق عقوبة، بل هو تسريح تملؤه المروءة والجمال البلاغي والعملي.

الالتفات والنعت في الجواب الثاني: في الخيار الثاني قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ﴾ ولم يقل "أعدّ لكنّ". هذا الإظهار في مقام الإضمار (تسمية الوصف: المحسنات) يعلّق الأجر بالوصف لا بمجرد القرابة والزوجية. "مِنْ" هنا للبيان والتبيين وليست للتبعيض، كما يرى المحققون كابن تيمية والبقاعي – رحمهم الله -، أي: المحسنات اللاتي هنّ أنتنّ.

معادلة المسؤولية التناسبية: *﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾

السياق والمقاصد: انتقل الخطاب من نداء النبي ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ إلى خطابهن مباشرة ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ لترسيخ روح المسؤولية المباشرة.

المقصد التشريعي والسلوكي: تقرير قاعدة "على قدر الغنم يكون الغرم" و*"شرف المكانة يقتضي غلظ العقوبة وعظم المثوبة"*. وهو ما يركز عليه سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن)؛ حيث إن القرب من محضن الوحي يزيل الأعذار، فالحجة عليهن أقطع.

إشراقة بلاغية: التنكير للتعظيم والتهويل: ﴿بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، التنكير هنا للتقليل الافتراضي والتهويل المقاصدي، والوصف بـ ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ (بكسر الياء على القراءة المشهورة) أي تبينت في نفسها وظهرت، وهو قطع لطرق الظن الشائع في بيوت القادة.

الحساب الرياضي والبلاغي: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. الضعف في لغة العرب هو المثل المضاف، أي تأخذ ثلاثة أمثال عذاب غيرها، أو مِثلي عذاب غيرها (ضعفين). وفي المقابل: ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

الفرق النحوي الدقيق في الأفعال: في الذنب قال: ﴿مَن يَأْتِ﴾ بصيغة الغائب المبني للمعلوم مسنداً للفاحشة مجازاً، ثم بنى الفعل لما لم يسم فاعله في العقوبة ﴿يُضَاعَفْ﴾ ولم يقل "يضاعف الله"؛ لأن مقام العقاب والترهيب يناسبه الاختصار وحذف الفاعل لإثبات وقوع الفعل بذاته.

أمّا في الثواب فقد أسند الأمر لذاته العلية بنون العظمة: ﴿نُّؤْتِهَا﴾ و﴿أَعْتَدْنَا﴾. وهذا من اللطائف التي تنبّه لها ابن القيم – رحمه الله - في النظر إلى كرم الله؛ فالخير

مضاف إليه مباشرة، والشر والعقاب يُصاغ بما يبعد المواجهة المباشرة بالعقوبة تنزيهاً.

الفصل الصرفي بين الأجر والرزق: في الثواب قال: ﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وهو الثواب الأخروي المقابل للعمل، ثم أضاف: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، والرزق الكريم عند البلاغيين هو الذي لا كدر فيه ولا منّة، وهو الجنة وما فيها.

أدبيات الخطاب وتدابير الحماية: *﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

السياق والمقاصد: الانتقال من تصفية الماديات (الزهد) إلى تصفية السلوك المعاملي (التعامل مع المجتمع الخارجي).

المقصد المقاصدي: "سد الذرائع" وحماية الطهر القلبي للمجتمع. فالآية لا تتحدث عن بيوت عادية، بل عن بيت يرتاده المنافقون وذوو القلوب العليلة.

إشراقة بلاغية: النفي البلاغي المطلق: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾. كلمة "أحد" تقع في سياق النفي لتفيد الاستغراق الشامل، أي لا تماثل بينكن وبين أي امرأة في الأرض في الفضل والمسؤولية.

شرط الكَمال والمسؤولية: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾. جواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق (أي إن اتقيتن فلا تماثل بينكن وبين غيركن، أو إن اتقيتن فالتزمن بما سيأتي). يعلق ابن عاشور – رحمه الله - هنا بأن الشرط لإلهاب الحماس وتحريك وازع التقوى، فمكانهن يدعوهن حتماً للتقوى.

النهي وأثره السببي (الفاء السببية): ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قلبه﴾. الخضوع بالقول: ترخيصه وتليينه. النحو هنا حاسم: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية في سياق النهي. الرابط لساني ونفسي: الخضوع علة، وطمع المريض معلول.

التشخيص النفسي البلاغي: ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. استعارة مكنية؛ حيث شبّه ضعف الإيمان أو شهوة النفاق بالمرض العضوي الذي يفسد طبيعة الإنسان الجسدية، فصاحب القلب المريض يرى اللين الطبيعي أو العفوي دعوة للفجور.

الأمر بالإحكام البلاغي: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. مفعول مطلق مؤكد ﴿قَوْلًا﴾، و﴿مَّعْرُوفًا﴾ أي بريئاً من الريبة، حازماً في غير جفاء، سهلاً في غير خضوع.

يؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله - أن أمهات المؤمنين معصومات من الفواحش الكبرى بنص القرآن، وأن سياق الآيات (في سورة الأحزاب والنور) هو سياق تأديبٍ لنساء الأمة أجمع في كيفية التعامل مع الأجانب، وتثبيتٌ لطهارة أزواج النبي ﷺ، وأنّ شرف الأمومة لهن ثابت بنص القرآن، ولا يمكن

لأي عاصٍ أن ينزع هذا الشرف الثابت. وحتى في أشد الفرضيات القرآنية (من يأت منكن بفاحشة)، فإن ذلك إنما يُذكر لبيان عظم شأن منزلتهن التي تجعل الحساب فيها دقيقاً، وهو دليل على تفردهن بالمنزلة والتشريف.

مركزية البيوت وتفكيك التبرج: *﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

السياق والمقاصد: الانتقال إلى فقه الاستقرار والعبادة، المقصد: جعل بيوت النبي هي محضن "النموذج الأعلى" للاستقرار العائلي، وحصر الجهد والوقت في تشكيل نواة المجتمع المسلم، وبناء حصانة ذاتية ضد الموروث الجاهلي.

إشراقة بلاغية: الاشتقاق الصرفي الدقيق لـ ﴿وَقَرْنَ﴾: فيها قراءتان سبعيتان شهيرتان: قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بفتح القاف ﴿وَقَرْنَ﴾: من القرار في المكان (قرَّ يقرّ)، وحُذفت عينه تخفيفاً.

وقرأ الباقون بكسر القاف ﴿وَقِرْنَ﴾: من الوقار (وقَر يقِر)، أي الزمن البيوت مع الوقار والسكينة. وهو إعجاز يجمع بين السكون المكاني والوقار النفسي.

الإضافة البيانية للتاريخ: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. التبرج: إظهار المحاسن مأخوذ من البروج لظهورها وعلوها. ووصفها بـ ﴿الْأُولَى﴾ إشارة بلاغية إلى أن التبرج انتكاسة وعودة وارتداد إلى عهود قديمة غابرة من الجهل والتخلف السلوكي، وليس رقيّاً ولا تقدماً، كما يلح محمد قطب – رحمه الله - في تحليلاته (الجاهلية المعاصرة).

الحصر البلاغي بـ ﴿إِنَّمَا﴾: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾. أداة حصر تفيد توجيه الإرادة التشريعية نحو غاية واحدة ومحددة: تطهير بيت النبوة.

الالتفات الضميري اللساني الفارق: انتقل الخطاب من نون النسوة ﴿بُيُوتِكُنَّ، تَبَرَّجْنَ، أَقِمْنَ﴾ إلى ميم الجمع للمذكر والمؤنث ﴿عَنكُمُ، وَيُطَهِّرَكُمْ﴾. لماذا؟ ليدخل النبي صلى الله عليه وسلم، وبقية أهل بيته في هذا التطهير الشامل. فالخطاب هنا اتسع ليشمل الأسرة النبوية ككيان متكامل.

التأكيد بالمصدر (المفعول المطلق): ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. مجيء ﴿تَطْهِيرًا﴾ ينفي أي شائبة مجازية، فهو تطهير حقيقي، بالغ، ومطلق من الأرجاس المعنوية والمادية.

استثمار المحضن المعرفي: *﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

السياق والمقاصد: بعد الأوامر بالقرار، والعبادة، والطاعة، جاء توجيههن إلى الوظيفة المعرفية والعلمية.

المقصد: تحويل البيوت من مجرد سكن مادي إلى "مراكز إشعاع علمي ووحياني". أمهات المؤمنين لسن مجرد زوجات، بل هنّ "راويات الشريعة والخصوصية النبوية".

إشراقة بلاغية: تعدد معاني ﴿وَاذْكُرْنَ﴾: الذكر هنا يحمل معنيين بلاغيين وسياقيين: الذكر القلبي واللساني: التعبد بما يُتلى من القرآن والسنة والتفكر فيه.

ومن معانيه: الذكر بمعنى الحفظ والتبليغ للنظرية والتطبيق: (من الذاكرة والذكر للغير)، وهو ما يركز عليه البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر)، فأنّ الله يذكرّهن بنعمته أن جعل بيوتهن مهبطاً للوحي، فعليهن وعي هذا وتدبره لتبليغه للأمة.

عطف ﴿الْحِكْمَةِ﴾ على ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: آيات الله هي القرآن، والحكمة هي السنة النبوية، والبيان الفقهي والدقائق السلوكية للنبي. والعطف يفيد المغايرة الإجرائية مع التلازم في الحجية.

الختام بالاسمين الشريفين: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. اللطيف: الذي يصل إلى دقائق الأمور في خفاء، والخبير: العالم ببواطنها. دلالته البلاغية هنا: هو لطيف بكنّ إذ اختاركن لهذا المقام وشحن بيوتكن بالوحي، وخبير بما تنطوي عليه قلوبكن، فجازين اللطف بالطاعة، والخبرة بالتقوى.

الميثاق العام وإعلان المساواة الإنسانية والتكليفية: *(﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

سبب النزول والربط السياقي: عن أم سلمة رضي الله عنها: قلتُ يا رسولَ اللهِ ما لنا لا نُذْكَرُ في القرآنِ كما يُذكرُ الرجالُ فأنزل اللهُ سبحانَه وتعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) [١].

نزلت هذه الآية لترفع السياق من الخاص (نساء النبي) إلى العام المشترك (كل الأمة: رجالاً ونساءً).

المقصد العقدى والاجتماعي: إعلان الشراكة التامة والمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في التكليف، والمسؤولية، والجزاء، والترقي الروحي.

إشراقة بلاغية: التكرار الحاشد: الآية مبنية على عشر صفات، كُررت في كل صفة صيغة المذكر والمؤنث عبر عطف التناظر ﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾. هذا

---

١ - ذكره ابن كثير في تحفة الطالب (٢٥٠)، وقال في الدرر السنية: إسناده لا بأس به.

الإطناب البلاغي مقصود لذاته؛ لقطع أي توهم بأن الخطاب القرآني مخصص للرجال فقط، ولإثبات أن كل مرتبة يبلغها الرجل يمكن للمرأة بلوغها وِفق شروطها الروحية.

الترتيب الصعودي والترقي الأخلاقي (السلم الإيماني): اعتنى ابن القيم وابن عاشور -رحمهما الله - بترتيب هذه الصفات؛ فالترتيب ليس عشوائياً بل يمثل هندسة عميقة لبناء الشخصية:

الإسلام: الانقياد الظاهري، ثم الإيمان: التصديق والعمق الباطني، ثم القنوت: دوام الطاعة والاستقرار على الإيمان، ثم الصدق: مطابقة القول والعمل للباطن، وهو سياج القنوت، ثم الصبر: الوعاء الذي يحمي الصدق؛ لأن التكاليف شاقة، ثم الخشوع: ثمرة الصبر السلوكية التي تظهر في العبادة والقلب، ثم التصدق والصيام: تجليات الخشوع؛ ثم التصدق (إحسان للخلق وبذل للمال)، والصيام (إحسان للنفس وكبح للشهوة)، ثم حفظ الفروج: الثمرة المباشرة للصيام والخشوع (الوقاية العِرضية).

الذكر الكثير: قمة الهرم، السلوك المستمر الذي يربط كل ما سبق بالوعي الدائم بالله.

حذف المفعول به والاختصار الإيجازي: في قوله ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف مفعول الحافظات إيجازاً لظهوره ودلالة ما قبله عليه (أي والحافظات فروجهن). وفي ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ كذلك، حذف اسم الجلالة مع المعطوف للعلم به ولتجنب التكرار.

البناء النحوي التقريري لجواب إنّ: جملة ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ هي في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾. وصيغة الماضي ﴿أَعَدَّ﴾ تفيد التحقق، واليقين، والصيرورة الثابتة التي لا تتبدل.

التنكير للتعظيم المطلق: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، تنكير المغفرة والأجر ليدل على أنهما فوق الوصف والتخيل الإنساني، وهو الأجر المتناسب مع عظم هذه المقامات العشرة.

عن أبي هريرة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال اللهُ تَبارَك وتَعالى: أعدَدتُ لِعِبادي الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رَأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إن شِئتُم: {فلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفيَ لَهم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ} [السجدة:١٧] .قال أبو مُعاويةَ، عن الأعمَشِ، عن أبي صالِحٍ: قرَأ أبو هُريرةَ: (قُرَّاتِ أعيُنٍ) [١]..

*(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

١ - أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم(٢٨٢٤) .

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥٠) ۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا(٥٢))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الأحزاب تمثل منعطفاً تشريعياً وتربوياً واجتماعياً حاسماً في تاريخ الأمة الإسلامية. إنها تُفكك رواسب الجاهلية الجاثمة في النفوس، وتُعيد صياغة الرابطة الأسرية والاجتماعية على أساس العبودية المحضة لله والتسليم التام لرسوله ﷺ.

التأسيس العقدي للاستسلام للأمر: *(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)

سبب النزول: نزلت في خطبة النبي ﷺ لزينب بنت جحش (القرشية الشريفة) لمولاه زيد بن حارثة. كان هذا الفارق الاجتماعي يُمثل جبلاً كبيراً في نظر الجاهلية، فجاءت الآية لتكسر هذا الكبرياء.

صُدّرت الآية بـ (نفي الشأن والإمكان) {وَمَا كَانَ}، وهو أبلغ أساليب النفي في اللغة، إذ لا ينفي الفعل فقط بل ينفي صلاحية الذات للفعل أصلاً. وجاءت (مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) بالنكرة في سياق النفي لتفيد العموم الشمولي، وقُرئت (أن يَكُونَ) بالياء والتاء لتشمل الصنفين.

إشراقة بلاغية مقاصدية: المقصد الأساسي هو "إلغاء الهوى أمام النص". يقول ابن القيم – رحمه الله -: "كمال العبودية هو ألاّ يبقى للمكلف خيرة بعد أمر الله ورسوله". ويشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن المقابلة بين قضاء الله ورسوله وبين خيرة العبد تُبين حد الحريات في الإسلام؛ فالحرية تنتهي عندما يتنزل التشريع الإلهي.

كما يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ هذه الآية هي قاعدة "التجريد التام" للعبودية، حيث تُنزع الرغبات النفسية والموروثات الاجتماعية بضربة تشريعية حاسمة ليحل محلها الرضا والتسليم.

إبطال التبني والجهاد النفسي للنبي ﷺ: *(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتق الله)

إشراقة بلاغية: التعبير بـ (لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) (وهو زيد بن حارثة) فيه التفات لطيف يكشف رعاية النبي لزيد وتثبيتاً لمكانة زيد.

أسرار النظم والنحو: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ)؛ التعبير بالجملة الاسمية الكاشفة لوعد الله له بزواجها مستقبلاً لتشريع إبطال التبني عياناً.

وقوله (وَتَخْشَى النَّاسَ) ليس معناه الخوف المذموم، بل هو حساب لردود فعل المنافقين والمشركين الذين سيروجون أن محمداً تزوج امرأة ابنه (بالتبني)، وهو أمر مستقذر في الجاهلية.

المقصد التشريعي: يقول ابن تيمية رحمه الله - في تنزيه الأنبياء: "خشية النبي هنا هي من الفتنة التشريعية وكلام المنافقين، وليس تقصيراً في التبليغ". وجاء التعقيب الحاسم بصيغة الماضي المؤكد للوقوع المستقبلي: (فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا)؛ فالزواج تم بأمر وتزويج إلهي مباشر لقطع دابر التبني: (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءَ زَيدُ بنُ حارِثةَ يَشكو، فجَعَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: اتَّقِ اللهَ، وأمسِكْ عليك زَوجَكَ، قال أنَسٌ: لو كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاتِمًا شيئًا لَكَتَمَ هذه، قال: فكانَت زَينَبُ تَفخَرُ على أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَقولُ: زَوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ، وزَوَّجَني اللهُ تَعالى مِن فوقِ سَبعِ

سَمَواتٍ، وعَن ثابِتٍ: (وتُخفي في نَفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه وتَخشى النَّاسَ) ، نَزَلَت في شَأنِ زَينَبَ وزَيدِ بنِ حارِثَةَ[١]..

يذكر البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ الربط بين الآيتين مبهر؛ فالأولى أمرت بالاستسلام (زينب رضوان الله عليها استسلمت وتزوجت زيداً)، فلما وقع المكروه لنفسها وطلقها، جاءت المكافأة الإلهية بأن تكون أمّاً للمؤمنين وزوجة لرسول الله بـنص قرآني.

مقامه ﷺ ونفي الحرج: *(مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا، مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

كرر القرآن نفي الحرج لدعم الموقف النفسي للنبي أمام الألسنة المرجفة. والتعبير بـ (سُنَّةَ اللَّهِ) يُعطي القضية بعداً تاريخياً وكونياً؛ فالأنبياء قبلك واجهوا تفتيت عادات مجتمعاتهم بالحق.

الصفة القيادية والدعوية: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا): تنص على ميزان الداعية الأكبر: (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}. يعلق محمد قطب – رحمه الله - هنا قائلاً: "إن تجريد الخشية لله هو الذي يمنح الداعية الصلابة أمام قوى المجتمع الجاهلي وعاداته الموروثة".

ثم يأتي فيصل القضية: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ). حسم لغوي قاطع. انتفت الأبوة النسبية لزيد، وثبتت الأبوة الروحية والرسالية للأمة جمعاء. استخدام الأداة (وَلَٰكِن) للاستدراك لدفع التوهم؛ فهو ليس أباً بيولوجياً لأحد يمنعه من التزوج بزوجته السابقة، بل هو رسول وخاتم؛ ومقامه يقتضي أن يشرع للأمة بالفعل لا بالقول فقط.

التزكية الإيمانية وسط المعركة الاجتماعية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وُ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا، تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا).

المقصد والربط السياقي: بعد الخوض في تفاصيل العلاقات الاجتماعية الشائكة، ينقل القرآن للقلوب وإلى واحة الذكر. يرى ابن القيم – رحمه الله - في

---

١ - أخرجه البخاري (٧٤٢٠) و البيهقي (١٣٣٦١) واللفظ له، والترمذي (٣٢١٢)، وأحمد (١٢٥١١) بنحوه..

(الوابل الصيب) أن ذكر الله الكثير هو الحصن النفسي للمؤمن من لوثات المجتمع ونفاق المنافقين.

وعن الحارث بن الحارث الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: وآمرُكم بذكرِ اللهِ كثيرًا، ومثلُ ذلك كمثلِ رجلٍ طلبه العدوُّ سراعًا في أثَرِه، حتى أتى حصنًا حصينًا فأحرزَ نفسَه فيه، وكذلك العبدُ لا ينجو من الشيطان إلا بذكرِ اللهِ[١].

إشراقة بلاغية: أمر بالذكر ثم أكد بالمصدر الفطري (ذِكْرًا كَثِيرًا)، ثم حدد الأوقات الشريفة (بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أي: الصباح والمساء، لطرفي النهار الدالين على استيعاب الوقت كله.

جماليات الصلاة الإلهية: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وملاكته)؛ صلاة الله ثناؤه ورحمته، وصلاة الملائكة استغفار. والغاية: (لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ). يعقب سيد قطب - رحمه الله -: "أي رعاية وأي حنان يفيض من هذه الآية! الله العظيم يصلي على العبد الفاني ليخرجه من ظلمات الجاهلية والضياع إلى نور الهدى واليقين".

*(تَحِيَّتُهُمْ) أي: تحية المؤمنين، (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) أي: يوم يرون الله، (سَلَامٌ ۚ) أي: يسلم الله عليهم، وتسلم عليهم الملائكة، قريب من قوله سبحانه: (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) [الواقعة:٢٥-٢٦]، (وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) يعني: الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خلق اللهُ آدمَ على صُورتِه، وطُولُه سِتُّونَ ذِراعًا، ثُم قال: اذْهبْ فَسَلِّم على أُولئِكَ النَّفَرِ – وهُم نَفَرٌ من الملائِكةِ جُلُوسٌ – فاسْتمِعْ ما يُحَيُّونَك؛ فإنَّها تَحَيَّتُك وتَحيةُ ذُرِّيَّتِك، فذَهبَ فقال : السَّلامُ عليكم ، فقالُوا: السَّلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ ، فزَادُوهُ (ورَحمةُ اللهِ) فكُلُّ مَن يَدخلُ الجنةَ على صورةِ آدمَ في طُولِه سِتُّونَ ذِراعًا ، فلمْ تَزلْ الخَلْقُ تَنقُصُ بعدَه حتى الآنَ[٢].

وظيفة الرسالة ومواجهة العدو: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا).

إشراقة بلاغية: تتابع الأحوال والصفات لخمس وظائف رئيسية: (شاهد، مبشر، نذير، داعٍ، سراج منير). ذكر ابن عاشور – رحمه الله - تنبيهاً لطيفاً هنا، حيث قال: وصفُ السراج بـ (مُّنِيرًا) لأن من السرج ما يدخن ويظلم، أما سراج المصطفى فخالص التنوير والهداية، يكشف ظلمات الجهالة دون كدر.

---

١ - أخرجه مطولا الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (١٧١٧٠) بنحوه، والطيالسي (١١٦١) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦١٢).

٢ - أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) باختلاف يسير.

التكليف الصارم: (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)، لعله تأكيد لما ذكره في الآية الأولى من السورة. وهنا وضح أنّ السبب توجيه نفسي للتعالي على حملات التشويه التي واكبت زواجه بزينب وإبطال التبني. (وَدَعْ أَذَاهُمْ) أي لا يشغلك رد أذاهم وانتقامك لنفسك عن الاستمرار في التبليغ والبناء.

كما يقول المثل: دع الكلاب تنبح والقافلة تسير، وهذا لعله ترجمة لمثل أجنبي، أمّا ما يوازيه في بيئة العرب فقول الشاعر:

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً . . . لأصبح الصخر مثقالاً بميزان

التشريع العام لتنظيم الطلاق قبل المساس: *(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا).

انتقال سياقي بديع: بعد تفصيل أحكام بيت النبوة، يرجع القرآن لتنظيم أحكام المجتمع المؤمن ككل للتأكيد على أن التشريع لحمة واحدة.

كنّى عن الجماع بـ (تَمَسُّوهُنَّ) وهو من ألطف الكنايات القرآنية وأهذبها. المقصد الفقهي والاجتماعي هنا: نفي العدة عن المطلقة قبل الدخول، فلا تُحبس المرأة دون موجب. وجاء الأمر الأخلاقي الجابر لكسر الخواطر: (فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)؛ وهو ما قاله لرسوله أن يقوله لنسائه إن اخترن الطلاق، كما سبق، فالفراق لا يعني العداوة، بل التسريح بإحسان.

خصوصية الأحكام لبيت النبوة وحظر الزواج اللاحق: *(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

التشريع البلاغي والمقاصدي: تفصيل أصناف النساء اللاتي يحللن للنبي – صلى الله عليه وسلم- تكريماً له وتوسيعاً لدوائر المصاهرة التي كانت ركيزة سياسية ودعوية كبرى لتأليف القلوب (بنات العم، العمات، الخال، الخالات بشرط الهجرة معه).

أمّا قوله سبحانه: "خالصة لك": هبة المرأة نفسها بدون مهر هي خصوصية تشريفية وتخفيفية له ﷺ. وعلل الله هذا التوسيع بقوله: (لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ).

التفويض والترتيب النفسي: (تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ

بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)؛ منح الله نبيه حق إرجاء (تأخير) من يشاء من زوجاته في المبيت والتقديم وتفضيل بعضهن في القسمة، ورغم هذا التفويض الإلهي، كان ﷺ يتمسك بالعدل المطلق ويقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك".

عن عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقسِمُ بين نسائِهِ فيعدلُ ويقولُ : اللَّهمَّ هذا قَسمي فيما أملِكُ ، فلا تلُمْني فيما تملِكُ ولا أملِكُ[١].

وجاء تعليل هذا التفويض بأنه أهدأ لنفوسهن: (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ)؛ لأنهم إذا علمن أنّ هذا حكم الله وتفويضه لرسوله رضيّن وطابت نفوسهن.

المكافأة والإغلاق التشريعي : *(لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا).

شكر الله لأمهات المؤمنين اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة (في آيات التخيير السابقة في ذات السورة)، فجاءت المكافأة بمنع النبي من التزوج عليهن أو استبدالهن مكافأةً لوفائهن.

الخلاصة: إذا نظرنا إلى هذه الآيات كبناء واحد متكامل؛ نرى بوضوح كيف تآزر الفقه والتشريع مع التزكية والتربية النفسية.

يقول محمد قطب – رحمه الله - ما معناه: "إن المجتمع لا ينظف بمجرد القوانين الفوقية، بل لا بد من صياغة جديدة للمشاعر تعتمد على تعظيم أمر الله ورسوله، والنظر للنبي ﷺ باعتباره المركز الذي تدور حوله حركة المجتمع المسلم".

لقد نقلت الآيات الأمة من فوضى العادات الجاهلية القائمة على الهوى والأنفة الطبقية التي أبطلها الله ب(قصة زينب وزيد)، إلى الانضباط الكامل تحت مظلة الوحي والعبودية الخالصة لله الواحد القهار.

* (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۖ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ

---

١ - أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والدارمي (٢٢٥٣) جميعا بلفظه، وقال ابن الملقن في البدر المنير (ج٨/ص٣٨) عن سنده: صحيح.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥٩))

هذه الآيات في هذا الدرس قبل الأخير من أواخر سورة الأحزاب تمثل دستوراً تشريعياً، تربوياً، وأخلاقياً متكاملاً، صاغ الكيان الاجتماعي للأمة المسلمة الناشئة، وحمى خصوصية بيت النبوّة الذي هو مركز الإشعاع الأول.

آية الحجاب والآداب الاجتماعية: *(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا)

السياق والمقصد: يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ السورة بعد أن فصلت في علاقة النبي بأزواجه والملأ، انتقلت هنا لتربية المجتمع على توقير هذا البيت وتطهيره.

يوضح سيد قطب (في ظلال القرآن) أنّ مجتمع المدينة كان حديث عهد بجاهلية جافة في علاقاتها البيئية، فجاءت الآية لتصنع "حرمة الغيب" وعمق الحياء، وترفع النفوس من جفاء البداوة إلى رقة الأدب الإسلامي. (نزلت في عرس زينب بنت جحش حين ثقل بعض الضيوف وجلسوا يتحدثون).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا مَرَّ بجَنَباتِ أُمِّ سُلَيمٍ دَخَلَ عليها فسلَّمَ عليها، ثُمَّ قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَروسًا بزَينَبَ، فقالت لي أُمُّ سُلَيمٍ: لو أهدَينا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هَديَّةً، فقُلتُ لَها: افعَلي، فعَمَدَت إلى تَمرٍ وسَمنٍ وأقِطٍ، فاتَّخَذَت حَيسةً في بُرمةٍ، فأرسَلَت بها مَعي إليه، فانطَلَقتُ بها إليه، فقال لي: ضَعْها، ثُمَّ أمَرَني فقال: ادعُ لي رِجالًا -سَمَّاهم- وادعُ لي مَن لَقيتَ، قال: ففَعَلتُ الذي أمَرَني، فرَجَعتُ فإذا البَيتُ غاصٌّ بأهلِه، فرَأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وضَعَ يَدَيه على تلك الحَيسةِ وتَكَلَّمَ بها ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدعو عَشَرةً عَشَرةً يَأكُلونَ منه، ويقولُ لهم: اذكُروا اسمَ اللهِ، وليَأكُلْ كُلُّ رَجُلٍ ممَّا يَليه، قال: حتَّى تَصَدَّعوا كُلُّهم عَنها، فخَرَجَ منهم مَن خَرَجَ، وبَقيَ نَفَرٌ يَتَحَدَّثونَ، قال: وجَعَلتُ أغتَمُّ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَحوَ الحُجُراتِ وخَرَجتُ في إثرِه، فقُلتُ: إنَّهم قد ذَهَبوا، فرَجَعَ فدَخَلَ البَيتَ، وأرخى السِّترَ وإنِّي لَفي الحُجرةِ، وهو يقولُ: *(يا

أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَدخُلوا بُيوتَ النَّبيِّ إلَّا أن يُؤذَنَ لَكُم إلى طَعامٍ غَيرَ ناظِرينَ إناهُ ولَكِن إذا دُعيتُم فادخُلوا فإذا طَعِمتُم فانتَشِروا ولا مُستَأنِسينَ لحَديثٍ إنَّ ذلكم كان يُؤذي النَّبيَّ فيَستَحيي منكم واللهُ لا يَستَحيي مِنَ الحَقِّ) [١].

(إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ): استثناء مفرغ من أعم الأحوال. أي: لا تدخلوا في حال من الأحوال إلاّ حال المصاحبة للإذن.

(غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ): "غير" حال من الواو في "تدخلوا"، و"ناظرين" اسم فاعل مضاف، و"إناه" (نضجه ووقت سبكه) مفعول به لاسم الفاعل. هذا القيد اللساني يمنع "الانتظار الثقيل" قبل الطعام.

٣ إشراقة بلاغية: (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا): المقابلة الشرطية السريعة بالفاء المفيدة للتعقيب والترتيب؛ بمجرد الفراغ من اللقمة يأتي الأمر بالحركة، وهو إيجاز بليغ يقطع "الاستئناس للحديث" الذي يؤدي إلى ثقل الظل.

(إن ذلكم كان يؤذي النبي فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ): الجناس الاشتقاقي والمقابلة بين حياء الرسول (حياء الكرم والمروءة) وعدم حياء الله من بيان الحق (لأنه تشريع ودين).

اللمسة التربوية والمقاصدية: (ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ): يعلق ابن القيم – رحمه الله - في (إغاثة اللهفان) أنّ سد الذرائع هنا بلغ ذروته؛ فإذا كان هذا في حق أمهات المؤمنين وأطهر رجال الأمة (الصحابة)، فكيف بمن سواهم؟ المقصد هو "طهارة الخواطر" وحسم خطرات الشيطان قبل الصدور.

التشريع التأبيدي: (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا)؛ تعظيم لجنابه الفخم ومراعاة لكونهن زوجاته في الدنيا والآخرة، وفي تعبير (إنّ ذلكم كان عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا) تهويل وتشنيع لأي إخلال بهذا المقام.

الرقابة الإلهية المطلقة: *(إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)،

السياق والربط: جاءت الآية تذييلاً وتعقيباً على الأحكام السابقة، فبعد أنْ أمر بآداب الظاهر وحجاب الأجساد، انتقل للرقابة على السرائر.

إشراقة بلاغية: الشرطية التشكيكية وجوابها: (إن تُبْدُوا... فَإِنَّ اللَّهَ...)؛ مجيء "إنْ" الشرطية يفيد الشمول والتحذير الجازم.

---

١ - أخرجه البخاري معلقاً (٥١٦٣) واللفظ له، وأخرجه موصولا مسلم(١٤٢٨)

كما أنّ الإظهار في مقام الإضمار: في قوله سبحانه: (فإن الله كان بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) ولم يقل "به عليمًا" ليفيد عموم العلم الإلهي بالظواهر والبواطن، وفي استخدام (كَانَ) دلالة على ثبوت الصفة وأزليتها.

الاستثناء الرحيب (آية المحارم): *(لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

(لَّا جُنَاحَ): "لا" نافية للجنس، و"جناح" اسمها مبني على الفتح، وهو لنفي الحرج تماماً.

كما أنّ المقابلة الإملائية والبيانية: ثم تكرار (وَلَا) مع كل صنف (ولا أبنائهن، ولا إخوانهن...) لتأكيد استقلال كل صنف بانتفاء الجناح في التعامل معه بلا كلفة الحجاب الضيق، ودفعاً لتوهم العطف الإجمالي.

المقصد البلاغي والتربوي: لحظ ابن تيمية في فتاويه أنّ ذكر المحارم هنا أسقط الأعمام والأخوال، والسر البلاغي سياقي: لأن الأعمام والأخوال بمثابة الآباء، أو لأن أبناءهم ليسوا محارم فخشي الالتباس بسببه.

في ركائز التربية: الختام بـ (وَاتَّقِينَ اللَّهَ) نقلة من التشريع الجاف إلى الوازع الذاتي. الحجاب ليس مجرد جدران وأقمشة، بل هو تقوى تتقنها النفس، لأن الله (كان عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)، فالرقابة الداخلية هي صمام الأمان.

منبع الطهر ومحور الوجود (آية الصلاة على النبي): *(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

أوضح البقاعي – رحمه الله -: بعد أن أمرهم بترك إيذائه وحرمة بيوته، بيّن مقام هذا النبي عند ربه؛ فإذا كان ملك الملوك وملائكته يصلون عليه، فكيف تجرؤون أنتم على إيذائه أو التثاقل في بيته؟

أمّا ابن القيم – رحمه الله - (في جلاء الأفهام): فبيّن أنّ الصلاة من الله ثناء وثناء في الملأ الأعلى، ومن الملائكة دعاء واستغفار.

الجملة الاسمية المؤكدة: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ)؛ دخلت "إنّ" لتأكيد الخبر، وجاء الفعل مضارعاً (يُصَلُّونَ) ليفيد التجدد والاستمرار الذي لا ينقطع، ففيها إيماءة بالاقتداء، وكثر الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، ثم بين ذلك وأكده بقوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

ففي ذلك التشريف باللقب: لم يقل "يصلون على محمد" بل (عَلَى النَّبِيِّ) بالتعريف بالعهد والتشريف بالوصف لبيان علة الصلاة وهي النبوة.

كما أنّ المفعول المطلق التوكيدي: (وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)؛ لرفع المجاز وتأكيد حقيقة السلام والإنقياد التام لأمره.

وعيد المؤذين (مقارنة بلاغية): *(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا)، *(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)

إيذاء الله ورسوله: جاء العقاب فيه مطلقاً (لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)؛ لأن إيذاء الرسول كفر محض ومحادة لله.

وقوله سبحانه: (يؤذون الله): ينبغي أن يفهم فهما يليق بجلال الله سبحانه، ففي الحديث الذي يرويه أبو ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله: ا عبادي إنَّكم لن تبلُغوا ضُرِّي فتضرُّوني ولن تبلُغوا نَفعي فتنفَعوني يا عبادي إنَّكم تخطئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعًا ولا أبالي فاستغفروني أغفرْ لكم يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منْكم ما نقصَ ذلِكَ مِن مُلْكي شيئًا يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ ما زادَ ذلِكَ في مُلْكي شيئًا يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَهُ ما نقصَ ذلِكَ ممَّا عندي شيئًا إلَّا كما ينقصُ المخيَطُ إذا أُدخلَ البحرَ[١].

وقال في المقابل كما في الحديث الذي يرويه أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ يقولُ يُؤذِيني ابنُ آدَمَ يسُبُّ الدَّهرَ وأنا الدَّهرُ بيدي الأمرُ أُقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهار [٢].

فلعله يقال: إنّ الله يمقت على ذلك، والمقت أشد البغض، فالله يبغض ويعادي من يعادي دينه أو يؤذي رسوله، أو يفعل المنكرات، وقد جاءت جملة (يمقت على ذلك) في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: لا يَخرُجُ الرَّجُلانِ يضرِبانِ الغائطَ كاشِفَينِ عن عورتِهما يتحدَّثانِ، فإنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى يمقُتُ على ذلِكَ [٣].

وهذا المعنى قريب من الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه قال: إنَّ الله قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذَنتُه بالحَربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبدي بشَيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افتَرَضتُ عليه، وما يَزالُ عَبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبتُه كُنتُ سَمعَه الذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يَبطِشُ بها، ورِجلَه التي يَمشي بها، وإن سَألَني لَأُعطيَنَّه، ولَئِنِ استَعاذَني لَأُعيذَنَّه، وما

---

١ - أخرجه مسلم (٢٥٧٧) باختلاف يسير.
٢ - أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبو داود (٥٢٧٤) واللفظ لهم
٣ - أخرجه أبو داود (١٥)، وأحمد (١١٣١٠)، وابن خزيمة (٧١)، والحاكم (٥٦٠) بلفظه، وحسنه النووي رحمهم الله جميعاً

تَرَدَّدتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُه تَرَدُّدي عن نَفسِ المُؤمِنِ؛ يَكرَهُ المَوتَ، وأنا أكرَهُ مَساءَتَه[١].

وأمّا إيذاء المؤمنين والمؤمنات: فقيدها بقيد ثقيل: (بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا)؛ وهذا قيد استحقاقي. فمن أوذي بحد أو حق شرعي فليس داخلاً في الآية.

(فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا): يسمي البلاغيون هذا الأسلوب: استعارة مكنية بليغة، حيث صوّر البهتان والإثم بحمل ثقيل ينوء به صاحبه فوق ظهره يوم القيامة.

آية الجلباب والستر العام للمجتمع: *(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا).

الترتيب والسياق البلاغي: بدأ بالأقرب فالأقرب تصاعدياً: (أَزْوَاجِكَ) (بيت النبوة الخاص) ثم قال: (وَبَنَاتِكَ) (النسل الشريف) وهؤلاء قدوة وأسوة من سواهم، ثم قال: (وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ) (المجتمع العام). هذا الترتيب البلاغي يكرس مبدأ "القدوة"؛ تبدأ القيادة بنفسها وبيتها أولاً ليمتثل المجتمع طواعية.

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ): "يدنين" فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر المقدر (أي: قل لهن أدنينَ يُدْنِينَ). وتعديته بحرف (عَلَى) يضمن معنى الإرخاء والإسدال من الأعلى إلى الأسفل لتغطية البدن.

(مِن جَلَابِيبِهِنَّ): "مِن" هنا للتبعيض (أي يرخين جزءاً من الجلباب كالتقنيع أو التغطية)، أو لبيان الجنس. والجلباب في لسان العرب هو الثوب الواسع الذي يغطي جميع البدن فوق الثياب العادية.

المقصد والعلة التشريعية: (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ): "أدنى" بمعنى أقرب وأجدر. والعلة التشريعية البلاغية هنا هي "التمييز الحمائي"؛ فالجلباب والحشمة لافتة بصرية تعلن للعامة: "هذه عفيفة مصونة"؛ فيرتدع في قلبه منافق أو مريض، وينكف عنها الأذى.

يقول ابن تيمية – رحمه الله - في حجاب المرأة: "الحجاب تمييز للمؤمنات عن الحرائر العابثات في الجاهلية، فهو صيانة وحرية وليس تقييداً".

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا): تذييل يعبق بالرحمة؛ أي غفوراً لما سلف من تبرج الجاهلية قبل هذا التشريع، رحيماً بعباده حيث شرع لهم ما يحمي أعراضهم ويطهر مجتمعاتهم.

---

١ - أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من أفراد البخاري على مسلم.

خلاصة: إن هذه المنظومة من الآيات تدرجت من: الخاص جداً: تنظيم الدخول لبيت النبي وآداب الضيافة وحرمة أمهات المؤمنين، إلى القلبي الباطن: التخويف بعلم الله وسره وضرورة التقوى، إلى المحور الروحي: الصلاة على النبي كشحنة إيمانية تدفع للالتزام والتعظيم، إلى العام المجتمعي: حماية أفراد المجتمع (نساء المؤمنين) بكساء العفة الظاهر الذي يقطع أطماع المنافقين، فهي هندسة إلهية لبناء مجتمع طاهر العِرض، نقي السريرة، رفيع الأدب.

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا(٦٢) يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٧٣)

هذه الخواتيم المباركة في الدرس الختامي من سورة الأحزاب تمثل ذروة الختام المتشابك في السورة؛ حيث تعالج البنية المجتمعية الداخلية للأمة المسلمة في أوقات المحن، وتربط حركة التاريخ والواقع البشري بالسنن الإلهية الكونية، وصولاً إلى أصل الوجود الإنساني وسر التكليف (الأمانة).

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)

السياق والمقصد: تأتي الآية بعد الآيات التي نظمت الشأن الداخلي لبيت النبوة والمجتمع (الحجاب وعفة اللسان)، وهنا ينتقل السياق إلى حسم دابر المفسدين الذين يستغلون الأزمات لخلخلة الجبهة الداخلية.

إشراقة بلاغية: صُدّرت الآية بـ (لئن) الموطئة للقسم، لتدل على حتمية الوعيد وعلو الإرادة الإلهية.

العطف بالواو: (الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ)؛ يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ هذا إما عطف صفات لموصوف واحد (تنويعاً لجرائمهم)، أو توزيع لطوائف مختلفة: المنافقون (أصحاب المخططات العقائدية)، الذين في قلوبهم مرض (ضعاف الإيمان ومتبعو الشهوات)، والمرجفون (بثّاثو الإشاعات والأخبار الكاذبة المحبطة).

العدول النحوي في (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ): الغراء هو اللصوق، وضُمِّن معنى (التسليط)، فالنبي ﷺ سيُسلَّط عليهم سلطة استئصال لا فكاك منها إنْ لم ينهوا.

الالتفات البديع في (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ): استخدام "ثم" للتراخي الرتبي، فالعقوبة الأشد هي النفي والإخراج التام بعد التسليط.

يقول ابن تيمية – رحمه الله -: "المرجف هو الذي يذيع الأخبار السيئة التي تضعف قوة المؤمنين، وهذا يدل على أن حماية الأمن النفسي للمجتمع واجب شرعي، وعقوبة الإرجاف قد تصل إلى النفي".

ويشير سيد قطب - رحمه الله - إلى أنّ النص يكشف "الطابور الخامس" في المدينة، وكيف أن المنهج الإسلامي يمنح فرصة للمراجعة (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ)، فإذا لجّوا في البغي جاء الحسم الحازم الذي لا هوادة فيه.

*(مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا): (مَّلْعُونِينَ) حال منصوبة من الضمير في "يُجَاوِرُونَكَ"، وجاءت الحال هنا لازمة مقدرة، أو على الذم بتقدير "أذم ملعونين".

إشراقة بلاغية: (أَيْنَمَا ثُقِفُوا): الفعل "ثُقِفوا" يوحي، ويعرض بالظفر بالشيء بمهارة وسرعة، وفيه إشارة إلى أنهم أصبحوا ملاحقين مهدرين لا ملاذ لهم.

صيغة التفعيل (وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا): تفيد المبالغة والتكثير في القتل والتقطيع لقطع دابر شرهم، وأُكّد بالمصدر (تَقْتِيلًا) لرفع مجازية القتل والدلالة على شدة النكال.

يلحظ البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) التناسب التام؛ فبما أنهم حاولوا ترويع المجتمع المسلم بالإرجاف، عوقبوا بالترويع والملاحقة أينما وُجدوا (الجزاء من جنس العمل).

*(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا): إشراقة بلاغية: {سُنَّةَ اللَّهِ} مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره "سنّ الله ذلك سنة". وفي هذا النصب قوة تشريعية تجعل الحكم قانوناً تاريخياً مضطرداً لا يتخلف.

نفي التبديل بـ (وَلَن تَجِدَ) المؤكدة بـ "لن" يفيد التأبيد والاستغراق لسنن الله الناموسية في إهلاك المفسدين وقطع دابر منافقي الأمم السابقة.

يرى ابن القيم – رحمه الله - أنّ السنن الإلهية معللة بالحكم والمصالح، فكلما وُجدت أسباب العقوبة (من النفاق والإفساد) ترتبت عليها مسبباتها بقانون كوني ثابت كقوانين الفيزياء.

*(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا).

قال سفيان بن عيينة – رحمه الله -: كل شيء قال: "وما أدراك" فإنه أخبر به، وما قال: "وما يدريك" لم يخبر به.

المقصد والسياق: انتقال مفاجئ في الظاهر، عميق في الباطن؛ فالمنافقون واليهود كانوا يسألون عن الساعة تهكماً واستبعاداً، فنقل السياق النظر من التمرد الداخلي إلى الخوف من القيامة لقطع دابر الاستهتار.

إشراقة بلاغية: القصر بـ (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ) حصر حقيقي لقطع أطماع السائلين.

تذكير الوصف (قَرِيبًا) ولم يقل (قريبة) لأن "الساعة" هنا بمعنى البعث أو الوقت، أو لأن فعيل إذا كان بمعنى قريب في المكان أو الزمان يستوي فيه المذكر والمؤنث. وفي هذا الإبهام (وَمَا يُدْرِيكَ) ملمح بلاغي لبث الوجل والترقب.

يذكر ابن عاشور – رحمه الله - أنّ هذا الانتقال يسمى "الاستطراد لقطع الشغب"، فبدل الانشغال بالفتن والإرجاف، حريٌّ بالإنسان الالتفات لماله الأبدي.

*(إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا).

إشراقة بلاغية: تأكيد الجملة بـ (إِنَّ) رداً على استبعاد الكفار لعذاب الساعة، كما أنّ الجمع بين (وَلِيًّا)، وتعني: من يتولى أمورهم ابتداءً بقرابة أو صداقة، وبين (نَصِيرًا)، وتعني:من يدفع عنهم العذاب بقوة، هو استقصاء تام لقطع أي أمل في النجاة، وهو مناسب لذكر الطرد (لَعَنَ).

*(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

إشراقة بلاغية: قوله سبحانه: (تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النار): تصوير حسي رهيب للحم المشوي الشائه؛ والوجه هو أشرف أعضاء الإنسان ومجمع محاسنه، وتقليبه إمعان في الإذلال والمهانة.

الألف الزائدة (الرسولا، السبيلا): لمراعاة الفواصل القرآنية (الروي)، وله ملمح لغوي يشير إلى جأرهم بالصوت ومده بالتأسف والندم العظيم (ألف الإطلاق).

التحليل النفسي والسياقي: يتحول الولاء الأعمى في الدنيا لـ (سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا) إلى عداء مستعر في الآخرة. وفي هذا تنبيه للأمة المسلمة ألا تنقاد للمرجفين وكبراء النفاق.

يقف سيد قطب – رحمه الله - هنا طويلاً ليبين "عبودية القطيع"؛ كيف أنّ هؤلاء تخلوا عن أثمن ما يملكون وهو حرية الإرادة والعقل ليمشوا خلف كبرائهم، فلما حق الحساب لم يغنِ الكبراء عنهم شيئاً، فطلبوا لهم "العذاب الضعف" من فرط الحقد والندم.

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا).

يذكر أهل التفسير هنا بعض ما أوذي به موسى عليه السلام: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كانَت بَنو إسرائيلَ يَغتَسِلونَ عُراةً يَنظُرُ بَعضُهم إلى بَعضٍ، وكان موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَغتَسِلُ وحدَه، فقالوا: واللهِ ما يَمنَعُ موسى أن يَغتَسِلَ معنا إلَّا أنَّه آدَرُ، فذَهَبَ مَرَّةً يَغتَسِلُ، فوضَعَ ثَوبَه على حَجَرٍ، ففَرَّ الحَجَرُ بثَوبِه، فخَرَجَ موسى في إثرِه، يقولُ: ثَوبي يا حَجَرُ، حتَّى نَظَرَت بَنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: واللهِ ما بموسى مِن بَأسٍ، وأخَذَ ثَوبَه، فطَفِقَ بالحَجَرِ ضَربًا، فقال أبو هُرَيرةَ: واللهِ إنَّه لَنَدَبٌ بالحَجَرِ، سِتَّةٌ أو سَبعةٌ، ضَربًا بالحَجَرِ[١].

المقصد والسياق: بعد التحذير من المنافقين والكبراء، يوجه الله النداء للمؤمنين لحماية مقام القيادة (الرسول ﷺ) من الأذى النفسي والقولي (كقصة قسْمة الغنائم أو الخوض في شأن زواجه).

إشراقة بلاغية: (وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا): الواو للحال أو الاعتراض الذمي لأعدائه. و"الوجيه" هو ذو الجاه والشرف، فمكانة الأنبياء عند الله تدفع كل أذى يحاول البشر إلصاقه بهم.

يقول ابن تيمية – رحمه الله -: "أذى الأنبياء محبط للأعمال، والتحذير من التشبّه ببني إسرائيل في إيذاء موسى إشارة إلى أن كمال الطاعة للرسول تكون بالسمع والتسليم وترك التهم والاعتراضات".

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...}

---

١ - أخرجه البخاري (٢٧٨)، ومسلم(٣٣٩)

إشراقة بلاغية: (قَوْلًا سَدِيدًا}: السديد من السداد، وهو السهم الذي يصيب عين الهدف دون انحراف. وهو القول الحق، الصادق، العادل، الخالي من الفتن والإرجاف.

جواب الطلب (يُصْلِحْ لَكُمْ): جزم الفعل في جواب الأمر يدل على ترتب الصلاح على السداد القولي ترتباً حتمياً مشروطاً.

العمق المقاصدي: ربط ينبغي أن يلاخظ بين الكلمة والعمل؛ فاللسان المستقيم يثمر جوارح مستقيمة.

يفصل ابن القيم – رحمه الله - في كتاب (الفوائد) هذه الآية قائلاً: "إن في التعبير بـ (يصلح لكم أعمالكم) إشارة إلى أن العبد إذا تحرى الصدق والصواب في مقاله، أمدّه الله بالتوفيق في فعالِهِ، فالقول السديد هو بريد العمل الصالح".

*(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

إشراقة بلاغية (القمة الشامخة في السورة): يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي – رحمه الله -: يعظم الله تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدَّيتِهَا على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها، [ولم تؤديها] فعليك العقاب.

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) أي: خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس -بحسب قيامهم بها وعدمه- إلى ثلاثة أقسام:

منافقون، أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا، ومشركون، تركوها ظاهرًا وباطنًا، ومؤمنون، قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب فقال: (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم، لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه[١].

المقابلة البديعية: بين عظم حجم المخلوقات (سموات، أرض، جبال) وضعف حجم الإنسان، ومع ذلك هابت هي، واقتحم الإنسان.

صيغ المبالغة (ظَلُومًا جَهُولًا): على وزن (فعول)، وهذا وصف لجنس الإنسان من حيث هو بطبعه الطيني قبل التزكية، حيث يظلم نفسه بترك الوفاء ويجهل عاقبة الفشل.

يرى ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - أنّ "الأمانة" هي التكليف، والقيام بحقوق الله، والحرية والاختيار. وحملها الإنسان لما فيه من استعداد مزدوج (الروح والعقل).

ويوضح سيد قطب ومعه محمد قطب – رحمهما الله - هذه الآية: "إنها قمّة الكرامة الإنسانية وقمة الخطر في آن واحد. الكائنات الضخمة تمشي بـ (التسخير) الأعمى الفطري، أما الإنسان فيمشي بـ (الاختيار) والتكليف، إنها الأمانة المزلزلة التي تجعل هذا المخلوق الصغير يتفوق على الجبال إذا وفّى، ويهوي إلى أسفل سافلين إذا خان".

والصواب أنّ العرض على السماوات والأرض والجبال حقيقي، فالله يخاطب جميع مخلوقاته، كما في قوله وتعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت:١١].

وقال سبحانه: (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة:٢٦٠].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَفَرٍ فَأَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ تُرِيدُ؟» قَالَ: إِلى أَهْلِي قَالَ: «هَلْ لَكَ فِي خَيْرٍ؟» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» فَقَالَ: وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَى مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «هَذِهِ السَّلَمَةُ» فَدَعَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ بِشَاطِئِ الْوَادِي فَأَقْبَلَتْ تَخُدُّ الْأَرْضَ خَدًّا حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَشْهَدَهَا ثَلَاثًا، فَشَهِدَتْ ثَلَاثًا أَنَّهُ كَمَا قَالَ، ثُمَّ

---

١ - عبد الرحمن بن سعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٦٥٣).

رَجَعَتْ إِلَى مَنْبَتِهَا وَرَجَعَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: إِنِ اتَّبَعُونِي أَتَيْتُكَ بِهِمْ، وَإِلَّا رَجَعْتُ، فَكُنْتُ مَعَكَ [١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ بِمَ أَعْرِفُ أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ قَالَ: «إِنْ دَعَوْتُ هَذَا العِذْقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ حَتَّى سَقَطَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «ارْجِعْ فَعَادَ»، فَأَسْلَمَ الأَعْرَابِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ» [٢].

*(لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

لام العاقبة والتعليل (لِّيُعَذِّبَ): هي متعلقة بحمل الأمانة في الآية السابقة؛ أي إن غاية هذا الحمل وفرز الطاقات البشرية هو تمايز الصفوف وانقسام البشرية بحسب وفائها بالأمانة.

المقابلة والترتيب الإعجازي: بدأ بالتعذيب (الْمُنَافِقِينَ...) تثنية بالمشركين؛ لأن السورة عالجت خطر النفاق الداخلي أولاً. ثم جاءت المقابلة بالتوبة والرحمة (وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ).

صيغة الختام الشريف {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}: جاء الختام باسمي "الغفور" و"الرحيم" لتغطية تقصير الإنسان الملازم له بسبب كونه (ظلوماً جهولاً)؛ فبما أن الأمانة ثقيلة والإنسان ضعيف، فتح الله باب المغفرة والرحمة ليتدارك النقص البشري، فجاء الختام بلسماً يمسح روعة مشهد الأمانة الرهيب.

*

سورة سبأ

تسمية السورة

(سورة سبأ)، وهو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ولم يُطلق عليها العلماء أسماء أخرى توقيفية أو مشهورة بخلاف هذا الاسم، وتُسمى بهذا الاسم لورود قصة "قوم سبأ" فيها، وسبأ هو اسمٌ للرجل الذي تناسلت منه قبائل اليمن.

---

١ - سنن الدارمي (١٦)، قال المحقق: صحيح.
٢ - سنن الترمذي (٣٦٢٨)، صحح إسناده الألباني وغيره.

وهي سورة مكية باتفاق، سوى ما روي عن مقاتل وآخرين أن قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] أنها نزلت في المدينة.، ويبلغ عدد آياتها ٥٤ آية في العدد الكوفي، بينما تُعد ٥٥ آية في العد الشامي، وهذا الخلاف إنما في الوصل والوقف، فقد تعد مدرسة موضع وقف آية مستقلة، بينما تحسبه أخرى مع غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(٩)).

هذه الآيات في هذا الدرس هي الافتتاحية لسورة سبأ وتمثل وثيقة عقدية ومنهجية هائلة، وتكاد تكون مرآة لملامح السورة كاملة التي تُعنى بقضية "الإيمان بالآخرة" و"الجزاء" والرد على شبهات منكري البعث، مع تصوير إحاطة علم الله سبحانه وهيمنته.

*(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

(الحمد): هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل. (لله): أي له الحمد الكامل بجميع الوجوه.

السياق والمقاصد وعمود السورة: يرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ مقصود السورة الإخبار بتمام القدرة الباهرة على البعث. لذا بدأت بالحمد الشامل للملكين: الدنيا والآخرة.

أمّا سيد - رحمه الله - فيرى (في ظلال القرآن) أنّ السورة تهز الوجدان الإنساني من مطلعها بالحمد الذي يربط بين غيب السماوات والأرض وغيب الآخرة، ليدرك الإنسان أنّ الملكوت كله خاضع لمالك واحد، فلا يستغربنّ إعادة الخلق.

إشراقة بلاغية: الجملة الاسمية: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) تفيد الثبوت والدوام، ولم يقل "أحمد الله" الفعلية الدالة على التجدد والحدوث، فالاستحقاق ذاتي أزلي وأبدي.

تكرار شبه الجملة وتقديم المعمول: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، ثم (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ). تقديم {لَهُ}، الجار والمجرور، على المبتدأ المؤخر يفيد القصر والحصر، أي: له وحده لا لغيره.

الالتفات التاريخي والكوني: جمع بين حمد الدنيا وحمد الآخرة. يقول ابن عاشور: "حَمْدُ الآخرة هو ثناء أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده)".

يتحدث ابن القيم – رحمه الله – في (بدائع الفوائد): عن ختم الآية بالاسمين الشريفين (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)؛ فالحكيم من يضع الأشياء في مواضعها (وهذا يناسب تسيير الكون والدنيا)، والخبير بالعواقب والسرائر (وهذا يناسب الآخرة والجزاء).

*(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)

السياق والمقاصد: الآية تفصيل لقوله في الآية الأولى (الْخَبِيرُ)، وهي تبرهن على إحاطة علم الله جل وتعالى بكل حركة وسكون في هذا الكون العريض، تمهيدًا لإثبات القدرة على إحصاء أجزاء الموتى وبقاياهم بعد البِلى.

إشراقة بلاغية: صيغة المضارع: الأفعال (يَلِجُ، (يَخْرُجُ)، (يَنزِلُ)، (يَعْرُجُ) جاءت بالمضارع لإفادة التجدد والاستمرار الدائم الذي لا ينقطع لحظة واحدة.

المقابلة والترتيب النحوي: قابل بين (يلج / يخرج) و (ينزل / يعرج) في نسق هندسي مبهر.

الطباق: بين (يلج ويخرج) و(ينزل ويعرج)، وهو طباق ممتد يستغرق أقطار الوجود.

يتذوق سيد قطب – رحمه الله - فيقول: "حركة دائبة لا تفتر ثانية واحدة في أقطار السموات والأرض.. حبة القمح تلج، وقطرة المطر تلج، والنواة تلج، والميت يلج.. والنبتة تخرج، والعيون تخرج، والغازات تخرج.. والملائكة تعرج، والأرواح تعرج، والأدعية تعرج... وعين الله ترعى هذا كله".

أمّا ابن القيم – رحمه الله – فيلاحظ تذييل الآية: لماذا خُتمت بـ (الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) بعد ذكر العلم الهائل؟ لأن ما ينزل من السماء وما يعرج فيها يشتمل على ذنوب العباد وأعمالهم، ويشتمل على النعم والبلايا؛ فاحتاج الخلق هنا إلى سعة الرحمة والمغفرة.

*(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

السياق والمقاصد: ابن تيمية – رحمه الله - في (مجموع الفتاوى): يستدل بهذه الآية على أنّ إنكار الساعة ناشئ عن جهل بصفات كمال الله (علم الله وقدرته). لذا جاء الرد بـالقسم المؤكد باللام والنون المشددة كعلاج لإنكارهم العتيد.

إعراب (عَالِمِ): قرأ نافع وأبو جعفر ورويس عن يعقوب وابن عامر بالرفع (عَالِمُ) على أنها صفة لـ (ربي) أو خبر لمبتدأ محذوف، وقرأ الباقون بالجر (عَالِمِ) تابعة لـ (ربي) المقسم به، وقُرأ حمزة والكسائي (عَلاّمِ) للمبالغة. وكلها تؤكد سعة علم الله سبحانه وتعالى وأنّ له العلم المطلق.

وقد ورد هذا الاسم في أدعية النبي صلى الله عليه وسلم التي علمها أصحابه، فعن قيس بن عباد، قال: صلَّى عمَّارُ بنُ ياسرٍ بالقومِ صلاةً أخفَّها ، فَكأنَّهم أنْكروها ! فقالَ : ألم أُتمَّ الرُّكوعَ والسُّجودَ ؟ قالوا : بلى ، قالَ أمَّا أنِّي دعوتُ فيها بدعاءٍ كانَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ يدعو بِهِ اللَّهمَّ بعِلمِكَ الغيبَ وقدرتِكَ على الخلقِ أحيني ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي وتوفَّني إذا علمتَ الوفاةَ خيرًا لي وأسألُكَ خشيتَكَ في الغيبِ والشَّهادةِ وَكلمةَ الإخلاصِ في الرِّضا والغضبِ وأسألُكَ نعيمًا لاَ ينفدُ وقرَّةَ عينٍ لاَ تنقطعُ وأسألُكَ الرِّضاءَ بالقضاءِ وبردَ العيشِ بعدَ الموتِ ولذَّةَ النَّظرِ إلى وجْهِكَ والشَّوقَ إلى لقائِكَ وأعوذُ بِكَ من ضرَّاءٍ مُضرَّةٍ وفتنةٍ مضلَّةٍ اللَّهمَّ زيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ واجعَلنا هداةً مُهتدين. [١].

إشراقة بلاغية: نفي النفي وتوكيد الاستغراق: (لَا يَعْزُبُ) أي: لا يغيب ولا يخفى. وكلمة (مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) فاعل يعزب، ونفي أصغر منها وأكبر مستغرق للجنس بـ {وَلَا}.

الاستثناء المتصل أو المنقطع: (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) بدل من النفي أو استثناء لإثبات الكتابة الحفيظة.

أسرار بلاغية أخرى: تأكيد الإتيان بالقسم: (قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)، وهذا أحد المواضع الثلاثة في القرآن التي أُمر فيها النبي ﷺ بالقسم على وقوع البعث.

---

١ - أخرجه النسائي (١٣٠٦) واللفظ له، وأحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبان (١٩٧١) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده في صحيح النسائي.

بديع الترتيب: قدّم (فِي السَّمَاوَاتِ) هنا لأن السياق سياق العلم بالغيب، والسموات أقرب لعالم الغيب من الأرض. بينما في سورة يونس قدّم الأرض (فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) لأن السياق هناك كان لمعاينة أحوال أهل الأرض. (نكتة بلاغية دقيقة ذكرها الزمخشري وابن عاشور).

*(لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
السياق والمقاصد: بيان العلة الغائية لإتيان الساعة. الساعة ليست عبثًا، بل هي لإقامة العدل الإلهي المطلق، وتمييز المحسن من المسيء.

اللام في (لِّيَجْزِيَ): لام التعليل متعلقة بفعل (لَتَأْتِيَنَّكُمْ)، كما أنّ اسم الإشارة (أُولَٰئِكَ): للبعيد، لبيان علو منزلتهم ورفعة شأنهم في المقامات العالية.

إشراقة بلاغية: الجملة الاسمية: (لَهُم مَّغْفِرَةٌ) تفيد ثبوت هذا الرزق والمغفرة واستقرارهما لهم.

كما أنّ وصف الرزق بـ (كَرِيمٌ): الرزق الكريم هو الذي يأتي هنيئًا بلا نكد، ولا منّة فيه، ومصحوبًا بالتبجيل والتعظيم.

يربط سيد قطب - رحمه الله - بين "المغفرة" أولاً، كتطهير من أثر الذنوب البشرية، فالتخلية قبل التحلية، ثم "الرزق الكريم" كإكرام وتنعيم، فلا يدخلون الجنة بأعمالهم بل برحمة الله ومغفرته أولاً.

*(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)، السياق والمقاصد: المقابلة التامة (الطباق المقاصدي) بين مآل المؤمنين ومآل المعاندين.

الظرفية في (فِي آيَاتِنَا): لم يقل "سعوا إلى آياتنا" بل (فِي)، كأنهم غمسوا أنفسهم وحركتهم داخل محاربة الآيات وإبطالها، فهو سعي حثيث ومستمر.

إعراب {مُعَاجِزِينَ}: حال من فاعل (سعوا)، أي حال كونهم مقدرين أنهم يعجزون الأنبياء أو يفوتون الله سبحانه ولا يقدر عليهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (مُعَجِّزِينَ) بالتضعيف، أي: يثبطون الناس عن الإيمان.

إشراقة بلاغية: المشهد الحركي: يعبر لفظ (سَعَوْا) ولفظ (مُعَاجِزِينَ) عن حركة محمومة بالركض والمسابقة، يبذلون فيها غاية جهدهم ليروا مَن يغلب، وفي هذا تهكم خفي بهم؛ كيف يعاجز المخلوق الضعيف خالقه؟

التنكير والوصف: (عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)، الرجز هو أشد العذاب وأقذره، ووصفه بالأليم لبيان شدة الوجع الحسي والنفسي.

*(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

بعد أن ذكر الكفار المنكرين لساعته وآياته، يذكر هنا المنصفين من أهل العلم الذين يشهدون بصدق هذا الوحي، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وتثبيت للمؤمنين.

الفعل (وَيَرَى): رؤية علمية بصيرية (تتعدى لمفعولين إن كانت علمية، أو مفعول واحد وحال).

ضمير الفصل (هُوَ): في قوله (هُوَ الْحَقَّ) يفيد التأكيد والقصر، أي هو الحق المحض لا ما يدعيه الكفار.

الالتفات في (مِن رَّبِّكَ): إضافة الرب لكاف الخطاب ﷺ تكريم وتشريف وإشعار بالرعاية والمدد.

أسرار بلاغية أخرى: الاقتران البياني بين الاسمين: {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}. العزيز: القوي الغالب الذي لا يُقهر (فصراطه مستقيم متين ومن سار عليه عزّ)، وهو مع عزته وسلطانه {الْحَمِيدُ} المحمود على تشريعه وفضله وعدله، وليس جبارًا عاتيًا. هذا الاقتران يمنح السالك في هذا الصراط طمأنينة العزة والحمد معًا.

*(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

السياق والمقاصد: العودة لذكر تهكم الكفار وسخريتهم؛ إذ يعرضون دعوة النبي ﷺ للبعث كأنها "أعجوبة" أو "طرفة" يتندرون بها في نواديهم.

إشراقة بلاغية: التنكير للتحقير والتغريب: (عَلَىٰ رَجُلٍ)، لم يقولوا "على محمد" أو "على النبي" تجاهلا لشخصه وتقليلاً من شأنه، كأنهم يتحدثون عن نكرة مجهول جاء بأمر عجيب.

المبالغة في التفتت: (مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ). "مُمَزَّق" هنا مصدر ميمي (أي تمزيقاً كاملاً) أو اسم مكان (في كل موضع تفرقت فيه أجزاؤكم). وكلمة (كُلَّ) تفيد الشمول والاستغراق في التشتت والبِلى.

موضع (إِنَّكُمْ): جملة مستأنفة بيانية، أو هي جواب الشرط لـ (إِذَا) على تقدير ما يدل عليه (تُبعثون إذا مزقتم)، واللام في (لَفِي) هي اللام المزحلقة للتأكيد.

أسرار بلاغية أخرى: رسم المشهد الساخر: الاستفهام بـ {هَلْ نَدُلُّكُمْ} فيه تشويق مفتعل، يصور كبراء قريش وهم يتغامزون ويتضاحكون، يزعمون أنهم يقدمون للناس "اكتشافاً مضحكاً"، وهو رجل يقول إن العظام النخرة واللحم المتمزق في بطون السباع والتراب سيعود خلقًا جديدًا!

*(أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

السياق والمقاصد: حصروا أمره ﷺ في خيارين باطلين: إما تعمد الكذب (الافتراء) أو الجنون (بِهِ جِنَّةٌ).

يوضح ابن تيمية – رحمه الله - كيف يقلب القرآن الحجة؛ فهم رموه بالضلال، فرد القرآن بأنهم هم الغارقون في الضلال والعمى الحقيقي؛ لأن إنكار الآخرة يرفع عن الإنسان غايته الأخلاقية والوجودية فيعيش كالأنعام بل هم أضل.

همزة الاستفهام والوصل: (أَفْتَرَىٰ)، أصلها "أفتري"، حذفت همزة الوصل واستغني عنها بهمز الاستفهام.

حرف الإضراب (بَلِ): إضراب إبطالي وردّ حاسم، تجاوز الخيارين الساخرين ليبين حقيقتهم هم.

الظرفية الحقيقية: (فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ)، استعمال {فِي} يدل على إحاطة العذاب والضلال بهم من كل جانب، فهم منغمسون في جوفه.

إشراقة بلاغية: وصف الضلال بـ (الْبَعِيدِ): هو مجاز عقلي، والبعيد حقيقة هو الضال (صاحب الضلال) الذي ابتعد عن الطريق جِدًّا حتى صعبت عودته، فأسند البُعد للضلال نفسه للمبالغة.

*(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

السياق والمقاصد: هذا هو الختام الحاسم للمقطع الافتتاحي؛ نقلهم من السخرية الفكرية الافتراضية إلى الواقع الحسي الكوني المخيف. إنهم يعيشون محاصرين بملكون الله، والسماء فوقهم والأرض تحتهم، وهم تحت مشيئته في كل لحظة.

تقديم وتأخير الاستفهام: (فَلَمْ يَرَوْا)، الهمزة لها الصدارة، والفاء عاطفة على محذوف، و "لم" جازمة.

الشرط والجزاء: (إن نَّشَأْ نَخْسِفْ)، أفعال مضارعة مجزومة بـ "إن" الشرطية، السكون تفيد القطع والحسم الحتمي المرتبط بالمشيئة.

كلمة (كِسَفًا): قُرئت بفتح السِّين (قِطَعاً وتكاثفاً كالسحب العظيمة) وبسكونها، وهي تفيد التدمير الشامل الفوقي.

إشراقة بلاغية: بلاغة التهديد بالمحاصرة: (ا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم)، تصوير للإنسان وهو كائن صَغير تكتنفه السماء من فوقه والأرض من تحته، لا مهرب له ولا ملجأ.

لفتة ابن القيم في (عَبْدٍ مُّنِيبٍ): لماذا خُتمت الآية بالمنيب (الرجّاع إلى الله)؟ لأن النظر في الكون بجموده لا ينفع، إنما ينفع القلب اللين الحيّ الذي إذا رأى دلائل

القدرة وآيات التخويف أسرع بالإنابة والتوبة، كما أنّ الخسف والإسقاط آيات مخيفة، لا يبصر الحكمة منها إلا العبد العائد التائب تائب النفس بصير القلب.

خلاصة: هكذا ينتهي هذا الدرس الأول ليؤكد لنا أن المنكرين للبعث إنما يُنكرونه انطلاقًا من "استعظام واستهجان حسي بدائي"، فردّ الله عليهم ببيان عظمة علمه المحيط بكل ذرة، وعظمة ملكوته المحيط بهم شخصيًا، لتتهاوى كبرياؤهم أمام شهادة أهل العلم، وأمام مصير الرجز الأليم، فيتحول الوجدان المؤمن من حالة السماع إلى حالة الإنابة والخشوع التام.

*(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(٢١))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة سبأ تمثل نمطاً مذهلاً من الفن القياسي والتقابل المحكم في القرآن الكريم؛ حيث تضع أمام النظرة المتدبرة مشهدين متقابلين تماماً: مشهد الشكر والتمكين التام (آل داوود وسليمان)، ومشهد الكفر والتبديد الشامل (أهل سبأ).

المقطع الأول: معجزة الشكر والتمكين: *(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

السياق والمناسبة: تأتي الآية بعد الحديث عن علم الله المحيط بالغيب وعن القيامة، لتبين بعض معاني تصريف الله للكون فيجازي الشاكرين في الدنيا قبل الآخرة بتسخير النواميس.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قامَ فينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنامُ، ولا يَنبَغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ، وفي رِوايةِ أبي بَكرٍ: النَّارُ، لو كَشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتَهى إليه بَصَرُه مِن خَلقِه [١]..

إشراقة بلاغية: أُكِّدت الجملة بـ (اللام، وقد) لتحقيق الخبر والاهتمام به، كما أنّ تنكير (فَضْلًا) جاء للتفخيم والتعظيم، أي فضلاً عظيماً لا يحيط به الوصف.

أمّا تقديم الجار والمجرور (مِنَّا) على المفعول الثاني فهو لبيان شرف العطاء؛ فالعطية تعظم بعظم مُعطيها، أو كما قيل: إن الهدايا على مقدار هاديها [٢]..

إشراقة بلاغية: في قوله (يَا جِبَالُ أَوِّبِي) التفات من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الحكاية، وهو نداء موجه للجماد، وفي قوله (أَوِّبِي) (من الأوب وهو الرجوع) أي رددي معه التسبيح. ونصب (وَالطَّيْرَ) معطوفاً على محل الجبال (لأن محلها النصب على النداء) أو مفعول معه بتأويل: وسخرنا الطير.

المقصد والنظر النفسي: تداخل القوى الكونية؛ فالكون كله مصمّم للاستجابة للأذن الموصولة بالله، والجماد يملك حسّاً وتجاوباً تسقط معه الحجب عندما يصفو قلب العبد (داوود) بالتسبيح.

أمّا إلانة الحديد فتحكي غاية التمكين الإنساني، ألان الله له العنصر الصلب دون نار أو مطرقة، وهي أولى خطوات الثورة الصناعية في تاريخ البشرية ولكنها مقيدة بالوحي.

*(أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

التحليل النحوي والبلاغي: (أَن) هنا تفسيرية لأنها جاءت بعد فعل فيه معنى القول دون حروفه (أوحينَا أو أمرناه)، و(سَابِغَاتٍ) صفة لموصوف محذوف تقديره (دروعاً سابغات) أي كاملة وافية، وهو إيجاز حذف بليغ.

إشراقة بلاغية: قوله (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) السرد: هو نسج الدروع بحلقات: إشارة إلى الحكمة والإتقان؛ فلا تجعل المسامير دقيقة فتقلقل الحلق، ولا غليظة فتقطعها. هذا هو "فقه الإتقان والصنعة".

---

١ - أخرجه مسلم(١٧٩)

٢ - جاءت سليمان يوم العرض هدهدة. . أهدت إليها جرادا كان في فيها
وأنشدت بلســـــــان الحال قائلة . . إن الهدايا على مقـــدار مهديها
لو كان يهدى إلى الإنسان قيمتــه . ..ما كان عدلا لك الدنيا وما فيهــا

الالتفات المقاصدي الشامل: انتقل من الخطاب الخاص لداوود (اعْمَلْ) إلى الخطاب الجماعي (وَاعْمَلُوا صَالِحًا)، تذكيراً لآل داوود بأن التمكين المادي (صناعة الدروع والسلاح) لا بد أن يُحاط بسياج العمل الصالح الأخلاقي، وإلاّ تحول التمكين إلى طغيان وجبروت. الختام بتعليل مخيف: (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، وهو كما سبق عن ابن عباس رضي الله عنها في قوله تعالى: (بعباده بصيرا) يريد: أهل طاعته وأهل معصيته.

*(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ)

(غُدُوُّهَا شَهْرٌ) أي: رحلة الصباح، والغدوة هي السير في الصباح، ورَوَاحُهَا شَهْرٌ، رحلة المساء) فالروحة هي السير في المساء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولَن يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعينوا بالغَدوةِ والرَّوحةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلجةِ [١].

فهذه الأوقاتُ الثَّلاثةُ أوقاتُ العملِ والسَّيرِ إلى اللهِ؛ فالغَدوةُ: أوَّلُ النَّهارِ، والرَّوحةُ: آخِرُه، والدُّلجةُ: سَيرُ آخرِ اللَّيل.

التحليل النحوي والبلاغي: قراءة الجمهور بنصب {الرِّيحَ} بفعل محذوف يفسره السياق (وسخرنا لسليمان الريح)، وهو من باب الاشتغال أو العطف المتسق. وفي قوله (غُدُوُّهَا شَهْرٌ) إيجاز بحذف مضاف، أي: سير غدوتها تساوي مسيرة بشهر بالأقدام أو بسير القافلة، لسرعتها.

إشراقة بلاغية: التقابل التام بين الغدو والرواح في كلمتي (غدوّها / رواحها) يمنح الآية توازناً صوتياً وحركياً يطابق سرعة الرياح المنسابة بانتظام.

إسالة عين القِطْر: (القطر هو النحاس المذاب)، فبينما أُلين لداوود الحديد البارد، أُسيل لسليمان النحاس الساخن كالعين الجارية لتكتمل أدوات الصناعة المتقدمة لآل داوود.

وأمّا تسخير الجن فيحكي البُعد الحركي: تسخير قوى خفية متمردة بطبيعتها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سخر الله الجنّ لسليمان، وأمرهم بطاعته فيما مرهم به، (وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) في الآخرة، وقال بعضهم: في الدنيا، يفسره ما قوله تعالى: (وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) [ص:٣٨]، أي: من كان منهم عاصياً مُتمرداً يقوم سليمان -عليه السلام- بتقييده وربطه بالأغلال والسلاسل الحديدية عقاباً ولمنعه من الإفساد.

---

١ - أخرجه البخاري (٣٩) ومسلم (٢٨١٦) بنحوه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ عِفريتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ البارِحةَ ليَقطَعَ عليَّ صَلاتي، فأمكَنَني اللهُ منه فأخَذتُه، فأرَدتُ أن أربُطَه على ساريةٍ مِن سَواري المَسجِدِ حتَّى تَنظُروا إلَيه كُلُّكُم، فذَكَرتُ دَعوةَ أخي سُلَيمانَ: رَبِّ هَبْ لي مُلكًا لا يَنبَغي لأحَدٍ مِن بَعدي، فرَدَدتُه خاسِئًا [١]..

استعمال صيغة الذوق مع العذاب السعير يسميه البلاغيون: استعارة، وهي عبارة كثيرة الاستعمال في كل لهجات العرب، فالذوق حسي ومعنوي، وجاءت هنا لبيان شدة إدراك الألم الحسي والنفسي.

*(يعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

المحاريب (الأبنية الرفيعة والمساجد)، والجفان (القصاع الكبيرة) تشبه الجوابي (الحياض الكبيرة لجمع الماء)، وقدور راسيات (ثابتات لعظمها لا تحرك من مكانها).

المقصد الاجتماعي والسياسي: هذا النص يوضح وظيفة الدولة الممكنة: عمارة الأرض، والإنشاء البنائي الرفيع، وإطعام الخلق (القصاع والقدور الراسيات علامة على الكرم المفرط وإطعام الجماهير).

ذروة التكليف: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)؛ نُصب لفظ (شُكْرًا) على أنه مفعول له (لأجل الشكر)، أو حال، أو مفعول مطلق. والمحسوس هنا أن الشكر في المنظور القرآني ليس كلمة باللسان، بل هو "عمل" وحركة وإنتاج مادي وروحي.

الختام الحزين: (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، الشكور صيغة مبالغة، والقلة هنا تنبيه نفسي لئلا يغتر الإنسان بالكثرة الكافرة أو المترددة.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى تَورَّمَت قدَماه، فقيلَ له: غَفَرَ اللهُ لكَ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأخَّرَ، قال: أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا [٢].

*(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

فيه دليل أن الله سخرهم لسليمان بالترهيب، كما أن في الحديث إشارة أنهم لم يسخروا لغير سليمان عليه السلام، فكل من يدعي إمكانية تسخير الجن والشياطين، فإنما يحكي عن العكس، وهو مصداق قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ

١ - أخرجه البخاري (٣٤٢٣) ومسلم (٥٤١) باختلاف يسير
٢ - أخرجه البخاري (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩) بنحوه

وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) [الأنعام:١٢٨]، فالإنسي هو الذي رضي بعبادة الجن، وكان هذا مصيرهم في الإخرة، نعوذ بالله من النار.

إشراقة بلاغية: سياق تهشيم العقائد الباطلة. فالجن التي كان يُظن أنها تحكم وتتحكم وتعلم الغيب، سُخرت لتعمل في العذاب المهين وهي لا تدري بوفاة نبي الله المستند على عصاه (منسأته).

التحليل النفسي والحركي: المشهد فيه سخرية علوية مبكية؛ نبي ميت يسيطر على عالم الجن المهيب بعصا تأكلها حشرة صغيرة (الأرضة)، حتى إذا سقط خرّ سليمان وتكشفت الحقيقة للجميع: (أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

إشراقة بلاغية: جملة (أَن لَّوْ كَانُوا...) بدل اشتمال من الجن، أي تبين أمر الجن وانكشف عجزهم.

المقطع الثاني: كارثة الكفر والتبديد (أهل سبأ): هنا ينقلنا القرآن نقلة سياقية مدهشة؛ من آل داوود الشاكرين الممكنين، إلى "سبأ" الذين انقلبت جنتهم جحيماً بسبب الإعراض.

*(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

إشراقة بلاغية وبيانية: تقديم الخبر (لِسَبَإٍ) للاهتمام. وتنكير (آيَةٌ) للدلالة على أنها علامة باهرة تدعو للتأمل والإيمان.

الوصف المقاصدي والسياقي: (جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ)، الجنتان هنا لستان حديقتين فحسب، بل واديان عظيمان يحيط بهما الخضار والخصب من كل جانب.

الأمر والامتنان: (كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ)، صيغة أمر تدل على الإباحة الممتزجة بالطلب الأخلاقي (الشكر).

إيجاز جامع: (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)؛ جمعت الجملة النعم الدنيوية كاملة في (بلدة طيبة): هواء نقي، لا هوام فيها، أمن ورخاء)، والنعم الأخروية في (رب غفور). هذا هو التوازن المطلوب لاستمرار الحضارات.

* (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)

اللسانيات النبوية والسنن الكونية: الفاء في {فَأَعْرَضُوا} عاطفة تفيد التعقيب المباشر؛ الكفر بالإعراض قاد مباشرة إلى العقاب الشامل.

قيل: إنّ إعراضهم كان أن الله أرسل إليهم أنبياء فكذبوهم، ذكره البغوي عن وهب بن منبه، والله أعلم [١]..

سيل العرم: العرم السيل الجارف المهلك، وقال ابن الأعرابي: العرم السيل الذي لا يطاق. تحول الماء الذي كان مصدر الحياة والجنتين إلى مصدر للموت والدمار نتيجة تداعي سد مأرب وتخليهم عن صيانته وإعراضهم عن المنهج.

المقابلة والتبديل المهين:

النعمة السابقة	النقمة البديلة	الدلالة البلاغية
جنتان عن يمين وشمال	جنتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيء من سِدْرٍ قليل	تبديل نعمة الجنتين بالرديء الشوك مر المذاق
ثمار طيبة ورزق حسن	الأثل هو الشجر لا ثمر له، والسدر قليل النفع	ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ

إشراقة بلاغية: سمى ابن عاشور – رحمه الله - البديل هنا بالرديء الشائك أما قوله (بجَنَّتَيْنِ) فعلى سبيل المشاكلة التهكمية، تهكماً بجمال جنتيهم الأوليين.

*(ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)، الأسرار النحوية والبلاغية: اسم الإشارة (ذَٰلِكَ) في محل نصب مفعول ثانٍ لـ (جزيناهم).

التدبر العقدي: قوله {وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}، صيغة حصر بالاستفهام والاتقاء بـ (إلاّ). والمجازاة هنا بمعنى العقوبة الشديدة المستأصلة؛ فالله يعفو عن زلات المؤمن والشاكر، لكنه يستأصل الكفور (صيغة مبالغة من الكفر والجهود) لتمام عناده وجحوده للنعم.

*(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

القراءة الجغرافية والسياقية: القرى التي باركنا فيها هي الشام. والقرى الظاهرة هي المدن المتقاربة المتصلة يرى بعضها بعضاً من اليمن للشام.

بلاغة تقدير السير: (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)، أي جعلناه مسافات مضبوطة ومقداراً معلوماً من منزل إلى منزل، فلا يضل المسافر ولا يحتاج لحمل الزاد المفرط؛ لتوفر الطعام والماء والأمن على طول الطريق.

---

١ - تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص٩٧٦).

وكان متجرهم من اليمن إلى الشام، فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى، ولا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام.

(سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)، التنكير في (لَيَالِيَ وَأَيَّامًا) يفيد استغراق الأوقات في غاية الأمان، فلا يخافون ليلاً ولا نهاراً.

*(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

التحليل النفسي والاجتماعي: قال الأستاذ محمد قطب رحمه الله: هذا أثر "البطر والملل" من النعمة والراحة! تمنوا المشقة وتعب الأسفار والمفاوز (الصحاري) ليتمايز الأغنياء بمراكبهم عن الفقراء، حيث كان السير سهلاً ومتاحاً للجميع.

فكانت العقوبة: (فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ): تعبير بليغ جداً، تحولوا من واقع حي وحضارة شاخصة إلى مجرد قصة تُحكى وتُروى للسمر والاعتبار.

(وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ): تأكيد بالمصدر (مُمَزَّقٍ) للدلالة على الشتات الجغرافي والقبلي التام، حيث تفرقت قبائل سبأ في كل أرجاء الجزيرة العربية، قال الشعبي: لما غرقت قراهم، تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام، ومرَّ الأزد إلى عُمان، وخزاعة إلى تهامة – قيل: ومر الظهران، ومنهم من وصل مكة، وتولوا سدانة البيت لاحقاً - ، ومرّ آل خزيمة إلى العراق، والأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الأوس والخزرج..

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ) لعبرة ودلالات، (لِّكُلِّ صَبَّارٍ) عن معاصي الله (شَكُورٍ) لأنعمه، قال مقاتل: يعني المؤمن من هذه الأمة صبور على البلاء شاكر للنعماء، وقال مطرف: هو المؤمن، إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

ثنائية الصبر والشكر؛ فالصبر يُحتاج إليه عند تيسر أسباب الغواية فيصبر عنها والمشقة فيصبر عليها، والشكر يحمى النعمة من الزوال.

*(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ): قُرأ أبو عمرو، وهشام عن ابن عامر، وحمزة والكسائي {صَدَّقَ} بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، والتشديد يفيد تحقيق ظن إبليس وتأكيده فيهم حين قال: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) [ص:٨٢-٨٣]، قال السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المؤمنين كلهم، لأن المؤمنين لم يتبعوه في أصل الدين، قال تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) [الحجر:٤٢].

حقيقة السلطان الإبليسي: (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ) أي: ما كان تسليطنا إياه عليهم، (مِن) الاستغراقية لتأكيد نفي أي سلطة قهرية أو مادية للشيطان على إرادة الإنسان، إنما هي وسوسة استجابوا لها بملء إرادتهم الباطلة وبطرهم.

المقصد الابتلائي الأعلى: (لِّنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ)، وعلم الله هنا هو علم الظهور والشهادة الذي يترتب عليه الحساب والجزاء في الدنيا والآخرة.

الحفظ والرقابة: (وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)؛ ختام مهدئ لقلوب المؤمنين، ومهدد لقلوب الغافلين الكافرين، فكل حركة وسكنة، وكل نبتة شكر أو بطر، محفوظة في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

الخاتمة: هكذا تتحرك الآيات في إطار قانون قرآني ثابت: (النعمة + الشكر = تمكين ونماء وإلانة للكون) كما حدث مع آل داوود وسليمان، في مقابل (النعمة + البطر والإعراض = تمزيق وضياع وسيل عرم) كما حدث مع سبأ. والقرآن يضع هذين النموذجين أمام الفكر البشري ليتدبر العاقل مصيره بين الشاكرين والباحثين عن المشاق والمهالك.

*(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٣))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة سبأ تمثل معركة عقائدية وفكرية تدمّر ركائز الشرك من جذورها، ثم تنتقل لتصوير مشهد درامي حركي مهيب لخصام الطغاة والأتباع يوم القيامة.

*﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ)

السياق والمقاصد: تأتي هذه الآية لقطع كل حبال التعلق بغير الله. يذكر ابن القيم – رحمه الله - أنّ هذه الآية سدت على المشركين أبواب الشرك الأربعة: (الملك الاستقلالي، الشركة، المعونة، الشفاعة بغير إذن).

حذف مفعولي (زَعَمْتُم)؛ والتقدير: زعمتموهم آلهة. الحذف هنا لإهمال ذكر هذا الزعم الباطل واحتقاره.

(مِثْقَالَ ذَرَّةٍ): مفعول به لـ (لَا يَمْلِكُونَ). وجاءت النكرة في سياق النفي يفيد العموم الشمولي الشديد (أقل قيد ممكن من الملك منفي).

إشراقة بلاغية: الترقي الساري في النفي: انتقل من نفي الملك الاستقلالي للكون، ثم نفي الشراكة فيه (وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ)، ثم نفي المظاهرة والمعونة لرب العالمين (وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ)، كما أنّ تكرار حرف الجر الزائد مِن لاستغراق النفي وتأكيده.

*﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

السياق والمقاصد: حسم الباب الرابع والأخير الذي يتعلق به المشركون؛ فهم يعترفون أن الأصنام لا تملك ولا تشارك، لكنهم يقولون "هؤلاء شفعاؤنا عند الله"، فجاء النص ليقيد الشفاعة بإذنه تبارك وتعالى.

(حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ): (حَتَّى) هنا ابتدائية يقع بعدها الجمل الشرطية. و(فُزِّعَ) فعل ماضٍ مبني لما لم يسم فاعله، مضعّف العين (فَعَّلَ)، والتضعيف هنا يفيد "الإزالة" (أي أُزيل الفزع والخوف عن قلوب الملائكة أو الشافعين عند سماع الوحي).

إشراقة بلاغية: الإيجاز البديع في الجواب: (قَالُوا الْحَقَّ)؛ إيجاز بحذف المبتدأ أو المفعول (قالوا قولاً الحق، أو قالوا المقضي هو الحق).

الالتفات الجليل: ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى تنخلع لهما القلوب (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)؛ ليناسب العظمة المُشاهدة في مشهد ذعر الملائكة من كلامه سبحانه.

*﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

السياق والمقاصد: انتقال من عالم "الملك والتصرف" إلى عالم "النعمة والرزق". ويلحظ ابن عاشور – رحمه الله - أنّ القرآن بادر بالإجابة (قُلِ اللَّهُ) قبل أن يجيبوا؛ لأنهم لو أجابوا بغير ذلك لكذبوا الفطرة، ولو سكتوا لعجزوا.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ): تقديم ضمير المتكلم إنَّا اعتزازاً بالحق، وهذا من باب التنزل مع الخصم.

إشراقة بلاغية: كما أنّ الاستعمال الدقيق لحرفي الجر (عَلَى) و(فِي): دخلت (عَلَى) مع الهدى لإن الهدى يرفع صاحبه ويجعله مستعلياً مستبصراً بالآفاق. ودخلت (فِي) مع الضلال لأن الضلال يحيط بصاحبه كالقبر أو الظلمة فينغمس فيه ولا يرى مخرجاً.

الإنصاف في المناظرة والتلطف: لم يقل لهم "أنتم ضالون ونحن مهتدون" مواجهة، بل جاء بصيغة الترديد الإبهامي الظاهري لإثارة عقولهم؛ وهو أسلوب بلاغي في المحاججة يُسمى "التهذيب والمجاراة".

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، السياق والمقاصد: براءة تامة ومفاصلة لا تقبل الترقيع. تعزز روح المسؤولية الفردية الأخلاقية التي يركز عليها سيد قطب دائماً في ظلاله.

إشراقة بلاغية: الاحتباك اللطيف والأدب العالي: نسب الإجرام لنفسه فرضاً وجدلاً تعليماً للأدب في الخطاب عَمَّا أَجْرَمْنَا، ونسب العمل والعمل يحتمل الخير والشر إليهم عَمَّا تَعْمَلُونَ. وهذا منتهى التواضع والدعوة بالحسنى؛ إذ لم يقل لهم "عما أجرمتم".

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)، السياق والمقاصد: لما تعذر الاتفاق في الدنيا بإنصاف المحاجة، أُحيل الفضل والفصل إلى "يوم الجمع". والمقصد هو بث الطمأنينة في قلب المؤمن، والتهديد لقلب الكافر.

(يَفْتَحُ): الفتح هنا في لغة العرب وفي سياق الآية يعني (يقضي ويحكم)، ومنه الفتاحة وهي الحكومة.

إشراق بلاغية: صيغة المبالغة (الْفَتَّاحُ) على وزن فعال؛ للدلالة على كثرة أقضيته وعدلها التام وعمومها لجميع الخلائق، واقترانها بـ (الْعَلِيمُ) ليبين أن حكمه وقضاءه مبني على علم مطلق لا يدخله حيف ولا جهل.

*﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، السياق والمقاصد: تعجيز وتهكّم ينسف الشرك نسفاً عقلياً وشهودياً.

(أَرُونِيَ): فعل أمر يتعدى لثلاثة مفاعيل (ياء المتكلم مفعول أول، والذين مفعول ثانٍ، وشركاء مفعول ثالث). والأمر هنا توبيخي تعجيزي، (كَلَّا): حرف ردع وزجر لإبطال دعواهم.

إشراقة بلاغية: القصر بضمير الفصل والتعريف: (بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)؛ إضراب إبطالي بـ (بَلْ) يعقبه إثبات الوحدانية بصفة العزة (التي تقهر ولا تُقهر) والحكمة (التي تضع كل شيء في موضعه).

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
السياق والمقاصد: انتقال من تقرير التوحيد إلى تقرير الرسالة وعالميتها المطلقة.

(كَافَّةً): فيها وجهان لغويان بديعان؛ إمّا أنها حال من النَّاسِ (وقُدّمت الحال على المجرور للاهتمام، أي للناس عامة)، أو أنها حال من الكاف في أَرْسَلْنَاكَ أي أرسلناك جامعاً لهم كافاً لهم عن الباطل.

إشراقة بلاغية: أسلوب القصر بالنفي والإستثناء وَمَا... إِلَّا لتوكيد حصر الرسالة المحمدية في الشمول العالمي والوظيفة المزدوجة بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

التذييل بـ (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) لشرح سبب إعراضهم؛ وهو الجهل المركب بمراد الله وطبيعة النبوة.

*﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

السياق والمقاصد: يصور البقاعي في "نظم الدرر" أن هؤلاء لما عجزوا عن الحجة لجأوا إلى استعجال العذاب تكذيباً وسخرية، فجاء الرد حاسماً يقطع التراخي والتهاون.

(مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ): متى اسم استفهام مبني في محل رفع خبر مقدم، وهذا مبتدأ مؤخر. والاستفهام خرج مخرج الاستهزاء.

(لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ): الجملة في محل جر نعت لـ يَوْمٍ أو حال منه. والسين والتاء في تَسْتَأْخِرُونَ للطلب والجهد، أي لا يستطيعون طلب التأخير لشدة دقة التوقيت الإلهي.

*﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

مشهد الخصومة والملحمة الدرامية في الآخرة: يصف سيد قطب هذه الآيات بمشهد حي متحرك؛ يُجمد الكبرياء البشري الزائف، ويحوله إلى ذل مقيم قي الأغلال.

الاستقطاب والانهيار الجماهيري: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ)...: جواب لو محذوف لعظم التهويل والفظاعة؛ والتقدير: لرأيت أمراً فظيعاً لا تطيق الأبصار النظر إليه.

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ): تعبير لساني عجيب يحكي الحركة الدائبة والجدال العقيم المستمر (رد وتلقين متبادل).

خطاب المستضعفين: (لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)؛ إلقاء بالتبعة كاملة على القادة، وهو نزوع إنساني لمحاولة التملص من المسؤولية الفردية عند الفاجعة.

صدمة المستكبرين المرتدة: (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ): استفهام إنكاري توبيخي حاد. يسقط المستكبرون رداء الوقار الموهوم في الدنيا، وينقلبون باللوم العنيف على أتباعهم؛ تبرؤاً من الجريمة وتأكيداً على أن الأتباع اختاروا الإجرام بملء إرادتهم وطواعية نفوسهم.

كشف اللعبة وحقيقة غسيل الأدمغة: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ): الرد الصاعق من المستضعفين. ونحويّاً: إما مبتدأ والخبر محذوف (بل صدَّنا مكرُ الليل والنهار) أو فاعل لفعل محذوف.

إشراقة بلاغية: إضافة المكر إلى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مجاز عقلي بديع (المكر يقع فيهما، لكنه أضيف إليهما للدلالة على استمراره وديمومته الشديدة التي لا تنقطع لحظة واحدة؛ فهو مكر مؤسسي، إعلامي، دائم يغسل العقول آناء الليل وأطراف النهار).

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ): إما أنهم أخفوها في أنفسهم لعجزهم عن النطق، أو أظهروها (من أضداد اللغة)، والراجح هنا هو الكبت والخزي اللذان يمنعان المرء حتى من الصراخ.

(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا): انتقال من الجدال الكلامي المشتعل إلى الصمت الحسي المُطبق بوضع الأغلال؛ جزاءً وفاقاً لمكرهم المكبل لعقول العباد في الدنيا، ثم يأتي تذييل الآية بالعدل المطلق: (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ملخص: بدأت الآيات بقطع الشرك العقدي النظري من سماء الوجود وقوانينه الهندسية (الملك والشفاعة والرزق).

ثم قطعت الشرك العملي والتبعية العميقة للطواغيت والمستكبرين في الأرض بإبراز عاقبتهم الشنيعة.

الآيات تؤكد بلسان فصيح، وبلاغة آسرة، وبناء نحوي متين؛ أن الإنسان مسؤول عن فكره وعقله، وأن "مكر الإعلام والليل والنهار" لا يعفي التابعين من الأغلال والمسؤولية يوم يجمعنا الفتاح العليم.

*(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ

آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ(٥٤))

استكمالاً للمعركة العقائدية والبيانية الكبرى في سورة سبأ في هذا الدرس الأخير، نأتي إلى تفكيك "سيكولوجية الترف"، وتعرية مقاييس الأرض المادية، ثم نسف الشبهات المحيطة بالوحي، وصولاً إلى مشهد الختام الدرامي المروع الذي يقذف بالباطل في غيابات الخسران.

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

السياق والمقاصد: ينتقل النص من مناقشة المشركين عموماً إلى رصد "ظاهرة الترف" كعائق نفسي واجتماعي وتاريخي ضد الحق. يشير محمد قطب في دراساته النفسية والاجتماعية إلى أن المترف يعز عليه أن يتنازل عن امتيازاته الطبقية، فتتحول كبرياؤه المادي إلى عمى فكري.

(مِّن نَّذِيرٍ): دخول مِن الاستغراقية لتفيد الشمول التام؛ ما من قرية على مر التاريخ أرسل فيها نذير إلاّ وجرى فيها هذا القانون.

(مُتْرَفُوهَا): فاعل قَالَ. واختيار هذا الوصف عِوضاً عن "قال أشرافها" أو "قال كبراؤها" تعليلٌ للحكم؛ فالترف والنعمة الزائدة هما علة الطغيان والتكذيب.

إشراقة بلاغية: القصر بالنفي والاستثناء: (وَمَا أَرْسَلْنَا... إِلَّا قَالَ): يفيد حتمية هذه المواجهة بين الأنبياء والطبقة المترفة، وفيها تسلية لنبينا صلى الله الله عليه وسلم.

الغرور بالمحسوس: (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)؛ أكدوا نفي العذاب بالباء الزائدة في خبر مَا النافية العاملة عمل ليس لشدة طمأنينتهم الزائفة، حيث قاسوا رضا الله في الآخرة بكثرة العطاء في الدنيا (قياس فاسد).

*﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

السياق والمقاصد: تصحيح الموازين الإلهية. الرزق ليس علامة على الرضا والمحبة، بل هو خاضع للمشيئة والابتلاء.

(وَيَقْدِرُ): معطوف على (يَبْسُطُ)، ومعناهما هنا: يوسع الرزق ويضيق ويقنن بحكمة، ابتلاء وامتحاناً.

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ): جملة استدراكية تنعى على البشر قصر نظرهم ووقوفهم عند ظواهر الأسباب دون النفاذ إلى حكمتها الإلهية.

*﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾

السياق والمقاصد: تجريد القيمة من الماديات وتحويلها إلى المعنويات والعمل (الإيمان والعمل الصالح).

(بِالَّتِي): الباء زائدة للتوكيد، وجاء الاسم المفر المؤنث الَّتِي صفة لجماعة تكسير (الأموال والأولاد) لإبراز ضعفها مجتمعة عن تحقيق القربى.

(زُلْفَىٰ): مفعول مطلق مؤكِّد لـ (تُقَرِّبُكُمْ) من غير لفظه (أي قربى)، أو حال.

(إِلَّا مَنْ آمَنَ): استثناء منقطع (عند بعض النحاة) لأن المؤمن ليس من جنس الأموال والأولاد، أو متصل بتقدير: إلا أموال وأولاد من آمن (حيث تصبح طاعة وقربة).

إشراقة بلاغية: الاحتباك وتعديد الأجور: جَزَاءُ الضِّعْفِ؛ مضاف ومضاف إليه، من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الجزاء المضاعف، وجاء مفرداً إشارة إلى عظمة هذا الضعف الذي يبدأ من عشرة أمثال إلى ما لا نهاية.

عن ابن عباس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له عِندَه عَشرَ حَسَناتٍ، إلى سَبعِ مِائةِ ضِعفٍ،

إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئةٍ فلَم يَعمَلْها كَتَبَها اللهُ له عِندَه حَسَنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبَها اللهُ له سَيِّئةً واحِدة [١].

مساكن عالية وعلو الرتبة: (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)؛ اختيار "الغرفات" دون البيوت أو القصور للدلالة على العلو والرفعة الحسيّة والمعنوية، ووصفهم بـ "آمنون" هو منتهى النعيم النفسي المقابل لفزع أهل النار.

*﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ إشراقة بلاغية: مقابلة تامة (طباق) مع الآية السابقة؛ فالمؤمنون: (أولئك في الغرفات آمنون)، وهؤلاء (فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ).

(مُعَاجِزِينَ): اسم فاعل يفيد المحاولة والمغالبة (يظنون أنهم يعجزون الله ويفوتونه).

(مُحْضَرُونَ): اسم مفعول مبني لما لم يسم فاعله، يضفي ظلالاً من المهانة، فهم يُساقون رغماً عنهم، كالمجرمين المجلوبين إلى ساحة العدالة بقهر وجبروت.

*﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه، (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) خير من يعطي ويرزق.

عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ وأُحدِّثُكم حديثًا فاحفظوه قال ما نقص مالُ عبدٍ من صدقةٍ ولا ظُلِم عبدٌ مظلمةً صبر عليها إلَّا زاده اللهُ عزًّا فاعفوا يُعزَّكم اللهُ ولا فتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلَّا فتح اللهُ عليه بابَ فقرٍ[٢].

وأصله في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما نقصت صدقةٌ من مالٍ ، وما زاد اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا ، وما تواضع عبدٌ إلا رفعه اللهُ[٣].

اللطيفة البلاغية والتكرار: قد يبدو هذا تكراراً، لكن ابن القيم وابن عاشور – رحمهما الله - يبيّنان فرقاً دقيقاً وسياقاً جديداً:

الآية السابقة جاءت رداً على قياس المشركين الفاسد (أن الرزق دليل المحبة).

---

١ - أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) باختلاف يسير.
٢ - أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وأحمد (١٨٠٦٠) مطولاً، وقال المنذري عن إسناده: صحح أو حسن أو بينهما.
٣ - أخرجه مسلم (٢٥٨٨) باختلاف يسير.

بينا الآية الحالية جاءت توطئة للحث على الإنفاق؛ فما دام الرزق بيد الله يبسطه ويقدره، فلا تخافوا الفقر: (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)، كما أنّ زيادة لفظ (مِنْ عِبَادِهِ) هنا للملاطفة والتحبيب، لتهيئتهم للبذل والإنفاق.

(فَهُوَ يُخْلِفُهُ): الفاء رابطة لجواب الشرط، والجملة الاسمية تفيد تحقيق وتحتم الخَلَف العاجل والآجل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنفِقْ أُنفِقْ عليك. وقال: يَدُ اللهِ مَلأى، لا تَغيضُها نَفَقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ. وقال: أرَأيتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟! فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ يَخفِضُ ويَرفَعُ [١]..

*﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، السياق والمقاصد: مشهد استجواب علني فاضح يوم القيامة يُقطع فيه المتبوع عن تابعه.

(أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ): تقديم الضمير المنفصل (إِيَّاكُمْ) على الفعل يفيد القصر والحصر، والاستفهام هنا ليس للاستعلام (فالله يعلم)، بل هو استفهام توبيخي للمشركين، واستنطاق للملائكة لتتبرأ.

إشراقة بلاغية: الأدب والتعظيم اللغوي: بدأت الملائكة بالتنزيه والولاء (قالوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) فقدمت التبرؤ والولاء لله قبل الإجابة عن السؤال.

(بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أكثرهم بهم مشركون): إضراب إبطالي بـ (بَلْ) لكشف حقيقة خداع الشيطان لهم؛ فالإنس لم يروْا الملائكة وإنما تمثلت لهم الشياطين فأطاعوهم، فكانت عبادتهم في الحقيقة للجن.

*﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

إشراقة بلاغية سياقية: تقديم النفع (نَّفْعًا) على الضر لأن سياق العبادة في الدنيا كان لرجاء النفع والشفاعة، فنُفي أولاً لقطع أملهم. ثم يعقبه الالتفات المخيف من الغيبة إلى الخطاب المباشر بلفظ العذاب: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ).

*﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

السياق والمقاصد: العودة لواقع التكذيب الدنيوي، ورصد التناقض والاضطراب في اتهاماتهم للنبي ﷺ.

---

١ - أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم(٩٩٣) .

إشراقة بلاغية: تكرار أسلوب القصر بـ (مَا... إلَّا) ثلاث مرات يحكي تشنجهم ومحاولتهم لحصار الدعوة:

تحجيم شخص النبي، واللعب على الوتر القبلي العاطفي: (قالوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ).

واتهام القرآن كمنظومة: (وقالوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى)، ثم اتهام أثر القرآن العظيم في القلوب: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ).

فيأتي إفحامهم تاريخيّاً وعقليّاً: *(وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ)؛ يكشف ابن تيمية – رحمه الله - هنا عمق الإفحام؛ فالمشركون يرفضون القرآن وليست لديهم أثارة من علم ولا كتاب سابق يقارنون به أو يستندون إليه في التكذيب، فهم يرفضون لمجرد الهوى والتقليد.

*﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

(مِعْشَارَ): عُشر العُشر (واحد على مئة)، وهو وزن لغوي مبالغ فيه لتقليل الشيء. والمعنى: أن كفار مكة لم يبلغوا ولا عُشر العشر من قوة وتَمكُّن وعمر الحضارات السابقة (كعاد وثمود وسَبأ، وفرعون وغيرهم).

إشراقة بلاغية: الإيجاز والوعيد المرعب: (فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)؛ استفهام تهويلي؛ أي كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والاستئصال؟ لقد أبدتهم، فاحذروا يا كفار مكة فأنتم أضعف منهم بكثير.

*﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

السياق والمقاصد: هذه الآية هي "قانون التحرر العقلي والمنهج العلمي" في القرآن الكريم. يحلل سيد قطب – رحمه الله - هذا النص مبيناً أن التفكير في الجماعات والجمهرة الجاهلية يسلب الفرد عقله (سيكولوجية الجماهير)، حيث تسود العاطفة والتقليد والمزايدات، فدعاهم القرآن للانفصال عن المجموع الصاخب لإعادة التقييم بهدوء.

(بِوَاحِدَةٍ): خصلة واحدة، وجاءت نكرة لتعظيمها واختصارها لكل طرق النجاة.

(مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ): حال منصوب بالفتحة المقدرة منع من ظهورها التعذر (لأنها أسماء معدولة ممنوعة من الصرف). واختيار (اثنين اثنين) أو (واحداً واحداً) لأن الاثنين يراجع بعضهما بعضاً بلا رياء أو ضغط مجتمعي، والمنفرد يخلو بنفسه مع الحقيقة.

إشراقة بلاغية: (مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ): استعمال كلمة (بِصَاحِبِكُم) استعطاف وتذكير لهم بـ أمانته وعقله طوال أربعين عاماً خبروه فيها، ونفي الجنون عنه بـ مِن الاستغراقية لقطع الشبهة.

ثم توالت سلسلة الردود الحاسمة ومفاصلة المنهج: *(قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)؛ نفي الطمع المادي، فإن كان هناك أجر فرضي فخُذوه أنتم، وأجري على الله الشاهد على سريرتي وعلانيتي.

وقد فصلنا القول أكثر في قوله تعالى في سورة يس: (اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ) [يس:٢١].

*(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)؛ استعارة تمثيلية في غاية القوة والروعة اللسانية؛ (يَقْذِفُ) تدل على الرمي بقوة وسرعة، فالحق مقذوف بمدد إلهي يدمغ باطلهم فيزهق. وقرئت عَلَّامُ بالرفع على أنها خبر ثانٍ أو بدل من الضمير المستتر، لتؤكد أن هذا القذف بالحق نابع من علم الغيب الشامل.

(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)؛ إعلان انتصار المبدأ. الباطل هنا (إما إبليس أو الأصنام) صار عاجزاً مشلولاً لا يبدأ خلقاً ولا يعيده، أو لا يبدي كلاماً ولا يعيده من الخوف والذل.

*(قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)، منتهى التجرد والموضوعية؛ فالضلال مسؤولية ذاتية، والهدى منبع وحي إلهي خالص، وختم بـ (سَمِيعٌ قَرِيبٌ) لبث الطمأنينة وتهديد المرجفين.

المشهد الختامي الفاجع (الاحتضار والهلاك المحتوم): يقدم الربع الأخير من السورة لوحة تشكيلية متحركة ومروعة لنهاية هؤلاء الطغاة والمترفين والمكذبين:

المباغتة والشلل الحركي: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ): حذف جواب لو لتذهب نفس السامع كل مذهب في تصور الفزع والهلع.

(فَلَا فَوْتَ): لا مهرب ولا نجاة؛ الـ لا نافية للجنس تفيد الاستغراق المطلق لعدم الفوت.

(وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ): أخذ قسري مباشر وسريع لا يحتاج لمطاردة، من موضع قريب (عند الموت، أو من القبور، أو في عرصات القيامة).

تناقض الحركة وطلب المستحيل: (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ):

إشراقة بلاغية: (التَّنَاوُشُ) هو تناول الشيء السهل القريب (تناوشت الشيء إذا نلته بيسر).

ما يسميه البلاغيون استعارة تمثيلية بديعة: شبّه حالهم وهم يطلبون قبول الإيمان في الآخرة بحال شخص يمد يده لينال شيئاً يقع في مكان سحيق يفصله عنه آلاف الأميال! فالإيمان المقبول كان في الدنيا (المكان القريب الذي ضيعوه)، أما الآن فهم في الآخرة (مكان بعيد) فكيف يتناوشونه؟ استفهام استحالى إنكاري عظيم.

رشق الغيب بالظنون: (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ) بمحمد صلى الله عليه وسلم ، من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة، (وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ): قال مجاهد: يرمون محمداً صلى الله عليه وسلم بالظنّ لا باليقين، وهو قولهم: ساحر، وشاعر، ومجنون، بلا دليل، فأسماه الله "قذفاً" كمن يقذف عرض رجل أو امرأة، ، ومعنى الغيب: هو الظن، لأنه غاب علمه عنهم. والمكان البعيد: بعدهم عن علم ما يقولونه، ويرمون به النبي صلى الله عليه وسلم، أو كمن يرمي حجراً في العتمة إلى مكان بعيد لا يدري أين يقع. فجاء الجزاء من جنس العمل، تباعدت عنهم النجاة كما أبعدوا عقولهم عن الحق.

*(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُقَيْلِ بْنِ شُمَيْرٍ الرِّيَاحِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: شَرِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ مَاءً بَارِدًا فَبَكَى فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ آيَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)، قَالَ: فَعَرَفْتُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَشْتَهُونَ شَيْئًا إِلَّا الْمَاءَ الْبَارِدَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) [الأعراف:٥٠] "[١].

(حِيلَ): فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله، إشارة إلى قوة قاهرة حاسمة غيبية حالت بينهم وبين مشتهياتهم (من التوبة، أو العودة للدنيا، أو الاستمتاع بنعيمهم).

(كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ): "الأشياع" هم النظائر والأشباه في الكفر عبر التاريخ؛ فهو مصير جمعي وحتمي لكل مترف مكذب.

التعليل الختامي للقرآن: (إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ)؛ ختمت السورة ببيان الداء العضال؛ وهو الشك الذي يورث الريبة والقلق النفسي، ويقعد بصاحبه عن اليقين والعمل، فكانت عاقبتهم هذا الخسران الأبدي.

الأثر البلاغي والمقاصدي العام للسورة: هكذا تنتهي سورة سبأ وقد هزت أركان الوجدان الإنساني؛ حيث بدأت بـ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لإثبات الملك التام، وانتهت بقطع آمال المكذبين بـ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا

---

١ - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ): الزهد (ص١٥٦)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

يَشْتَهُونَ؛ ليتطابق البدء مع الختام في خضوع الكون كله – طوعاً أو كرهاً – لجلال الفتاح العليم، العزيز الحكيم.

*

سورة فاطر

تسمية السورة

عُرفت هذه السورة باسمين رئيسيين وهما: (سورة فاطر): وهو الاسم الأكثر تداولاً في معظم المصاحف والتفاسير، سُميت به لوقوع كلمة "فاطر" في الآية الأولى منها.

(سورة الملائكة): وهو اسم توقيفي واجتهادي ورد في صحيح البخاري وسنن الترمذي، وسُميت بذلك لذكر الملائكة في أول آية منها ووصف خلقتهم وعملهم

وهي مكية بإجماع المفسرين، وقد اختلفت مدارس العد في عد آياتها، فهي ٤٦ آية: في عدّ مدرسة المدينة الشام، و٤٥ آية: في عدّ مدرسة مكة ومدرسة الكوفة.

ما ورد في فضلها وفي بعض آياتها:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ) [فاطر:٣٢] قَالَ: (هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الجَنَّةِ) [١].

وقال البخاري: (الملائكة) أي: سورة الملائكة: قَالَ مُجَاهِدٌ: الْقِطْمِيرُ لِفَافَةُ النَّوَاةِ، مُثَقَّلَةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: {الْحَرُورُ} بِالنَّهَارِ مَعَ الشَّمْسِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ {الْحَرُورُ} بِاللَّيْلِ وَالسَّمُومُ بِالنَّهَارِ {وَغَرَابِيبُ} أَشَدُّ سَوَادٍ، الْغِرْبِيبُ الشَّدِيدُ السَّوَادِ [٢].

وعن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَوفٍ، قال: سَألتُ عائِشةَ أُمَّ المُؤمِنينَ: بأيِّ شَيءٍ كانَ نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَفتَتِحُ صَلاتَه إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ؟ قالت: كان إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ افتَتَحَ صَلاتَه: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرائيلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنتَ تَحكُمُ بينَ عِبادِكَ فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ، اهدِني لما اختُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذنِكَ؛ إنَّكَ تَهدي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ، وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: " قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ

---

[١] - أخرجه الترمذي (٣٢٢٥) وقال عن سنده: حسن غريب، وصححه الألباني.
[٢] - صحيح البخاري، بعد حديث (٤٨٠١).
[٣] - أخرجه مسلم (٧٧٠) وأبو داود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وابن ماجه (١٣٥٧) جميعا باختلاف يسير.

نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ «قَالَ» قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ "[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١))

هذه الآيات الأحد عشر، فواتح سورة فاطر هي الدرس الأول، وهي تمثل "هندسة عقدية" متكاملة تبدأ من جلال الخلق لترسم معالم الوجود، وحقيقة النفس، وحتمية المصير.

عظمة الابتداء وسلطان الخلق: *(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

السياق والمقصد: افتتاح السورة بالحمد، وهي إحدى السور الخمس الحامدات، توزعت في أول القرآن، وربعه، ونصفه، واثنتان بداية الربع الأخير، تقرر استحقاق الله للثناء الذاتي قبل التكليف، المقصد هنا هو "تعبيد القلوب للقاهر الخالق" وتحطيم كبرياء المشركين بذكر عوالم الغيب (الملائكة) والشهادة (السموات والأرض).

[1] - أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) وصحح الألباني سنده.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ): (ال) في الحمد تفيد الجنس، كما قال ابن عاشور، قال: وليست لام التعريف هنا للاستغراق، لما علمت أنها للجنس، غير أن معنى الاستغراق حاصل هنا بالمثال، لأن الحكم باختصاص جنس الحمد به تعالى لوجود لام تعريف الجنس، في قوله (الحمد) ولام الاختصاص في قوله (لله) يستلزم انحصار أفراد الحمد في التعلق باسم الله تعالى لأنه إذا اختص الجنس اختصت الأفراد. فكل المحامد الظاهرة والباطنة لله تعالى سبحانه[١].

(الحمد): هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل. (لله): أي له الحمد الكامل بجميع الوجوه.

مثال كمال صفاته: أنه كامل الحياة، حي دائم لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم.

(فَاطِرِ): اسم فاعل من الفَطْر وهو الشقّ والابتداع على غير مثال سابق. يُنقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله: "ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها (أي بدأتها) [٢]..

(جَاعِلِ): صفة ثانية أو بدل، وفيها تحويل من الفطر الكوني الصامت إلى جعل الملائكة رسلاً أي ذات وظيفية.

(أُولِي أَجْنِحَةٍ) ذوي أجنحة، (مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ): صفات لأجنحة، وهي ممنوعة من الصرف للوصفية والعدل، معدولة عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، قال قتادة ومجاهد: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة أجنحة، ويزيد فيها ما يشاء، وهو قوله سبحانه: (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير).

إشراقة بلاغية: يشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى أنّ تقديم السموات والأرض هنا لأنها النعم المشهودة، تلاها بـ (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ) إعلاماً بـ "عالم الأمر" والغيبيات التي تنفذ مشيئته.

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ): جملة تذييلية مطلقة. يقول البقاعي – رحمه الله - في نظم الدرر: "فيها إشارة إلى أن القوانين الكونية ليست جامدة، بل هي طوع مشيئته المتجددة دائماً"، سواء كانت زيادة في أجنحة الملائكة، أو في جمال الصوت كما روي عن الحسن البصري، أو العقل، أو طول القامة.

---

(١) – انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير(ج١/ص١٦١).
(٢) – انظر تفسير الطبري وغيره

قانون الرحمة المطلقة والمشيئة النافذة: *(مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

السياق والمقصد: بعد إثبات القدرة المطلقة في الآية الأولى، نقلنا السياق إلى "تدبير هذه القدرة وعلاقتها بالبشر". المقصد هو قطع علائق القلوب بغير الله، وتحقيق التوحيد الفعلي (توحيد النفع والضر).

إشراقة بلاغية: استخدام الفعل {يَفْتَحِ} مع الرحمة يسمى في علم البلاغة استعارة تمثيلية بديعة؛ فالرحمة خزائن مغلقة يُفرج عنها أو تفتح بشيئة الله، قال تعالى: (أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) [ص:٩]، وفي المقابل استخدم كلمة (يُمْسِكْ) ولم يقل "يغلق" لأن الإمساك يدل على السيطرة التامة وحبس الشيء في حوزة القادر.

صناعة المقابلة واحتباك النظم: قال تعالى: (فَلَا مُمْسِكَ لَهَا Kبضمير المؤنث العائد على الرحمة ، بينما قال (وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ)، بضمير المذكر العائد على الشيء الممسك أو اللفظ، لنكتة إيجازية بلاغية تبهر العقول.

يقف سيد قطب في الظلال وقفة وجدانية عظيمة هنا ليقول: "هذه الآية وحدها إذا استقرت في قلب عبد، صنعت فيه المعجزات، وقلبت موازين خوفه ورجائه. إنها تمنحه الطمأنينة المطلقة؛ فلو أغلق أهل الأرض الأبواب في وجهه وفتح الله له باب رحمة، لوسعه الكون كله."

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: إنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ، وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، اللهُمَّ لا مانِعَ لما أعطَيتَ، ولا مُعطيَ لما مَنَعتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ[١].

محاكمة العقل البشري بالمنطق الكوني: *(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ).

السياق والمقصد: التفات من الخطاب العام عن الكون إلى خطاب مباشر للبشر (يَا أَيُّهَا النَّاسُ). المقصد هو إلزام الخصم بما يقرّ به (توحيد الربوبية والرزق) ليصل به ضرورة إلى ما ينكره (توحيد الألوهية).

---

(١) – أخرجه البخاري (٧٢٩٢) ومسلم (٥٩٣).

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}: "مِنْ" هنا حرف جر زائد لتأكيد الاستغراق والعموم (أي: لا يوجد أي خالق على الإطلاق). و"خالقٍ" مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ. وقرأ الجمهور (غَيْرُ) بالرفع صفة للمحل، وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف العاشر(غَيْرِ) بالجر صفة للفظ.

(فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ): "أنى" اسم استفهام بمعنى (كيف)، والفعل "تؤفكون" مبني لما لم يسمّ فاعله من الإفك وهو الصَرف، أي: كيف تُصرفون عن الحق الواضح بعد هذه الحجة؟

يشير ويؤكد ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - أن الاحتجاج بالخلق والرزق في القرآن ليس لمجرد إثبات وجود الله (لأن المشركين يقرون به أصلاً)، وإنما هو سَوق لـ "برهان التلازم"؛ فمن تفرد بالرزق من السماء (المطر) والأرض (النبات) يجب عقلاً وبلاغةً أن يُفرد بالعبادة.

تسلية القيادة النبوية وضبط موازين المعاد:*(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

السياق والمقصد: هذا الخطاب موجّه للرسول ﷺ. بعد أن أقام الحجة على الناس وعاندوا، جاءت الآية لتثبيت فؤاد النبي وتطييب خاطره. المقصد: "التأسّي والتهوين."

إشراقة بلاغية: (فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ}: بناء الفعل لما لم يسم فاعله وتنكير "رسل" يفيد التكثير والعموم، أي: لست بدعاً من الرسل في تكذيب قومه، بل هذا طريق ممتد وقانون تاريخي للدعوات.

تقديم الجار والمجرور (وَإِلَى اللَّهِ) على الفعل (تُرْجَعُ) يفيد الحصر والقصر، أي: إليه وحده لا إلى غيره مآل المحاكمة وفصل القضاء.

التحذير من المخادع الأكبر (الدنيا والغرور): *(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ).

السياق والمقصد: عودة لخطاب البشر وتحذيرهم من العوائق النفسية والواقعية التي تحول بينهم وبين اليقين بالآخرة. المقصد: "فكّ الارتباط العاطفي الزائف بالزائل."

(الْغَرُورُ): بفتح الغين هو الخدّاع، والمراد به هنا الشيطان بإجماع المفسرين، أما بضم الغين (الْغُرُور) فهو المصدر (الفعل نفسه).

تأكيد النهي بنون التوكيد الثقيلة في (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ) للتحذير الصارم من التهاون.

إشراقة بلاغية: يفصل ابن القيم – رحمه الله - في كتبه (إغاثة اللهفان) وغيره في معنى (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ): "الشيطان يغر الإنسان بالله فيقول له: الله غفور رحيم، استمر في ذنبك وسيقبل توبتك، فيجرّئه على المعصية باسم سعة الرحمة!"، وهذا أعلى تحليل نفسي لآليات الوسوسة الخادعة.

إعلان حالة الطوارئ الروحية: *(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

السياق والمقصد: تظهير وتجسيد للعدو الذي أُجمل في الآية السابقة باسم "الغرور". المقصد هنا هو الانتقال من دائرة العلم بالعداوة إلى "الممارسة العملية للعداوة" (فَاتَّخِذُوهُ).

إشراقة بلاغية: الجملة الأولى مصدّرة بـ (إِنَّ) لتأكيد الخبر الكوني: الشيطان عدو.

الفاء في (اَتَّخِذُوهُ) هي الفاء الفصيحة أو السببية، ترتب الأمر بالعمل على الخبر العلمي.

(إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ): صيغة الحصر بـ "إنما" لتوضيح غايته الاستراتيجية الوحيدة، فلا تظنوا أن لديه مشروعاً لإسعادكم أو نصحكم.

بصمة التأصيل الحركي: يتناول الأستاذ محمد قطب – رحمه الله - (في ظلال قضايا التربية وعلم النفس الإسلامي) هذه الآية موضحاً أن "اتخاذ الشيطان عدواً" ليس عملاً مشاعرياً سلبياً، بل هو استنفار نفسي كامل، يتطلب يقظة دائمة لمداخل الهوى والشبهات، لأن الشيطان يعمل عبر تنظيمات و"حزب" يجرّ البشر نحو الهلاك الجماعي.

القسمة الثنائية الحتمية للمصير: *(الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

السياق والمقصد: تفصيل لمصير "حزب الشيطان" ومصير من خالفه. المقصد: "الترهيب والترغيب بأسلوب المقابلة التامة."

إشراقة بلاغية: استخدام الجمل الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار ({لَهُمْ عَذَابٌ} / {لَهُم مَّغْفِرَةٌ})، كما أنّ تأخير المبتدأ وتقديم الجار والمجرور للاختصاص والتأكيد.

المقابلة في وصف العذاب بـ {شَدِيدٌ} (في جانب الكفر) ووصف الأجر بـ {كَبِيرٌ} مع سبق المغفرة (في جانب الإيمان)؛ لبيان أن الجنة تُنال بالرحمة والمغفرة أولاً، ثم يأتي الأجر التفضلي الشامل.

السيكولوجية البشرية وانقلاب المفاهيم: *(أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

السياق والمقصد: تحليل لأخطر مرض نفسي واجتماعي يصيب المعاندين، وهو "التزيين وانقلاب المعايير"؛ حيث يرى المجرم إجرامه حضارة، والظالم ظلمه عدلاً. المقصد: "كشف النفس الإنسانية وتسلية الرسول من الحزن عليهم."

إشراقة بلاغية (الإيجاز بالحذف): (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا...): أين جواب الشرط أو المبتدأ؟ هنا حذف بليغ جداً تركه القرآن ليروح فيه الذهن كل مذهب تقديري يهول النفس. قدره العلماء بـ: (أفمن زُيّن له سوء عمله كمن هداه الله؟) أو أفمن زُين له... ترجو هدايته أو تحزن عليه؟ .

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ): قُرئت بنصب "حسرات" على أنها مفعول لأجله أو حال. والتعبير بذهاب النفس حسرات يصور الحزن الشديد كأن نفس الإنسان تذوب وتتلاشى قطعاً وراءهم من فرط الشفقة.

يقول ابن عاشور – رحمه الله -: "التزيين هنا بُني لما لم يسم فاعله لأن المزيّن متعدد: قد يكون الشيطان، أو النفس الأمارة، أو البيئة الفاسدة."

ويعلق سيد قطب – رحمه الله - على رقة قلب النبي ﷺ الكبيرة التي يفرملها القرآن هنا: "إنها لفتة حانية لقلب الرسول المجهد الحزين وهو يراهم يركضون نحو النار، فيقول الله له: هون عليك، فالأمر مشيئتي وعلمي، وهم حصدوا ما زرعته نفوسهم المشوهة."

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ النَّاسِ كمَثَلِ رَجُلٍ استَوقدَ نارًا، فلَمَّا أضاءَت ما حَولَه جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعنَ فيها، فجَعَلَ يَنزِعُهنَّ ويَغلِبنَه فيَقتَحِمنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُم عَنِ النَّارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها [1].

برهان البعث في مرآة الطبيعة المتجددة: *(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ)

(1) – أخرجه البخاري (٦٤٨٣) وأخرجه مسلم (٢٢٨٤) باختلاف يسير.

السياق والمقصد: العودة إلى الدليل المادي الحسي المشهود لتثبيت مسألة "البعث" التي تضمنها وعد الله حق في. المقصد: "تقريب الغيب البعيد (النشور) بالمشاهد القريب (المطر والنبات)."

لاحظ الانتقال الإعجازي في الضمائر (الالتفات): بدأ بالاسم الظاهر الغائب {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ} ثم تحول فجأة إلى ضمير المتكلم العظيم العائد على الذات الإلهية {فَسُقْنَاهُ... فَأَحْيَيْنَا}. هذا الالتفات يوقظ السامع ويُشعر بـ "التدخل المباشر" للقدرة الإلهية في إحياء الأرض.

التعقيب بـ (كَذَٰلِكَ النُّشُورُ): الكاف للتشبيه، وذلك للإشارة البعيدة المعظمة، والنشور هو خروج الموتى من القبور.

يعقد ابن القيم – رحمه الله - مقارنة طردية بين إنبات الأجساد يوم القيامة وإنبات البذور في الأرض؛ فالمادة قابلة، والفاعل قادر، والماء (الذي ينزل قبل البعث) سبب، فالمنكر للبعث مع رؤيته لإحياء الأرض إنما ينكر بديهة عقلية مشهودة.

معادلة العزة وقوانين صعود الكلم العملي: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ)

السياق والمقصد: علاج لشهوة نفسية كبرى وهي "العزة والمنعة"؛ فالكفار كانوا يطلبونها عند أصنامهم وأموالهم. المقصد: "تصحيح مصادر القوة وربطها بالمنظومة الأخلاقية التعبدية."

إشراقة بلاغية: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا): جواب الشرط محذوف تقديره: فليطلبها من الله فإن العزة له جميعاً.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ): في فاعل ومفعول الفعل "يرفع" قولان لأئمة السلف:

القول الأول (ابن عباس ومجاهد): العمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فالكلام بلا عمل لا يُرفع ولا يقبل.

وقال الحسن البصري واختاره ابن جرير: الله يرفع العمل الصالح. والقول الأول أبلغ في التلازم التربوي بين المقال والفعال.

(وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) : "يبور" أي يفسد ويهلك (من البوار)، وصيغة الحصر بضمير الفصل {هُوَ} لتأكيد حتمية الفشل لمكرهم مهما بدا ذكياً أو متماسكاً.

الأطوار البشرية وإحاطة العلم الإلهي: (وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

السياق والمقصد: تدرج سياقي مبهر؛ من نشأة الكون، إلى الرزق، إلى المطر، ثم الآن إلى "خلق الإنسان نفسه وتفاصيل أنفاسه وأيامه". المقصد: إثبات شمول العلم والقدرة لقطع أي مساحة للشرك أو الشك في النفوس.

التدرج بـ {ثُمَّ} التي تفيد التراخي الرتبي والزمني: من أصل الخلق البعيد (تراب - آدم) إلى الأصل القريب المتجدد (نطفة) إلى التناسل الاجتماعي البشري (أزواجاً).

(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ): نفيان مستغرقان بـ "مِنْ" الاستغراقية الزائدة إعراباً، المؤكدة دلالةً. والعبارة تحتمل أن النقص في جنس الأعمار (هذا طويل العمر وهذا قصير العمر)، أو النقص الحقيقي اليومي من عمر الشخص نفسه، فكل يوم يمر ينقص من الأجل المكتوب.

خلاصة: تذييل الآية بـ (إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) هو بمثابة القفل الذي تُغلق به هذه المجموعة المتكاملة من براهين العظمة؛ فكل هذه التفاصيل الحيوية، من حركة أجنحة الملائكة، وتدفق سحائب المطر، وصعود الكلمات الطيبة، وانقاص أنفاس البشر، كل هذا المعقد والمتشابك.. هو عند الله خفيف هين يسير.

هكذا أخذتنا هذه الفواتح في رحلة عبر هندسة قرآنية تبدأ من السماء العالية، مروراً بخلجات النفس والتحذير من مكائد الشيطان، وصولاً إلى باطن الأرض وأطوار الرحم البشري؛ ليرى العقل البشري في نهاية المطاف أنه لا يملك إلاّ أن يستسلم لـ "فاطر السموات والأرض." جل وتعالى.

*(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩)وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ

وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة "فاطر" تمثل نسيجًا بيانيًا مذهلاً يعالج قضية التوحيد، ومصير البشرية، وحقيقة الافتقار الإنساني المطلق أمام الغنى الإلهي الكامل، مستخدمةً أسلوب المقابلات والضرب بالأمثال الكونية والنفسية.

*(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

بعد أن تحدثت السورة الدرس السابق عن دلائل القدرة، ضرب الله هنا مثلاً ماديًا مشهودًا لتقريب حقيقة معنوية. المقصد الأساسي هو المقارنة بين المؤمن والكافر، أو بين الحق والباطل.

إشراقة بلاغية: المقابلة والوصف المتعدد: وصف الماء العذب بثلاثة أوصاف تصاعدية في اللذة: عَذْبٌ (طيب)، فُرَاتٌ (شديد العذوبة يقطع العطش)، سَائِغٌ شَرَابُهُ (سهل المرور في الحلق). وفي المقابل وصف المالح بوصفين شديدين: مِلْحٌ وأُجَاجٌ (مرٌّ حارق من شدة ملوحته).

يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ التفرقة البلاغية في الأوصاف تشير إلى تنوع مراتب الخير في الإيمان، وتمركز الشر في الكفر.

أما سيد قطب – رحمه الله - فيرى أن النص يلفت الانتباه إلى التدبير الإلهي؛ فمع اختلاف طبيعة البحرين، إلاّ أنّ المصلحة العامة تلتقي في النهاية: (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً .تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

تقديم عَذْبٌ فُرَاتٌ على مِلْحٌ أُجَاجٌ تكريمًا للمؤمن المشبَّه بالماء العذب السائغ. وكلمة مَوَاخِرَ (حال من الفلك) تشير إلى شق السفن للماء بصوت مسموع، وهي حركة لسانية حركية تجعل المشهد الكوني حيًّا متدفقًا بالامتنان الإلهي: وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

*(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ)

إشراقة بلاغية: عبر بالمضارع (يُولِجُ) للدلالة على التجدد والاستمرار اليومي، أي: إدخال أحدهما في الآخر بالتدرج زمنيًا ومكانيًا، بينما عبر بالماضي (سَخَّرَ) لأن التسخير كقانون كوني تم واستقر منذ خلق النظام الشمسي.

الانتقال المفاجئ من العظمة الكونية المقترحة باسم الجلالة (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) إلى نفي الملكية عن الأوثان بلفظة دقيقة: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) للدلالة على الحصر والتصغير الساخر .

الـ (قِطْمِير) هو اللفافة البيضاء الرقيقة التي تحيط بنواة التمرة. يذكر ابن القيم – رحمه الله - أن اختيار هذا اللفظ تحديدًا دون غيره (كالنقير أو الفتيل) يعكس بلوغ الغاية في تصوير الهوان والعدم؛ فإذا كانوا لا يملكون الغشاء التافه المستهلك، فكيف يُعبدون؟ والبقاعي - رحمه الله - يرى هنا تناسبًا مذهلاً؛ فالذي يدبر الفلك والشمس والقمر لا يليق ترك عبادته واستبدالها بعبادة من لا يملك هذا الغشاء الرقيق.

*(إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

الآية تنفي عن الآلهة المدعاة صفات الربوبية عبر تدرج عقلي حاسم (السبر والتقسيم): انتفاء السماع: (إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ)؛ لأنهم إمّا جماد، وإمّا أموات، وإمّا ملائكة مشغولون بعبادة ربهم.

فرضية السماع الجدلية: (وَلَوْ سَمِعُوا) على سبيل الفرض المحال (تنزلاً مع الخصم) لكانت النتيجة: (مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) لعجزهم الذاتي، فهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا يحصل الأنقلاب يوم القيامة.

لهذا قال سبحانه: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)، أي يتبرؤون منكم، ومن عبادتكم إياهم: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) [يونس:٢٨-٢٩]،

ولهذا كانت الإشارة السياقية والالتفات البلاغي في قوله: (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) ختم حاسم للمسألة. قال ابن تيمية – رحمه الله -: "الخبير هو العالم بخفايا الأمور وعواقبها، وإخباره سبحانه قائم على العلم المطلق المشهود، فلا مجال بعد إخباره لشك أو مراء."

*(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) إشراقة بلاغية:

تعريف الطرفين والقصر: قوله (أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ) جاء بتعريف المبتدأ والخبر بـ (أل) الاستغراقية، مما يفيد قصر الفقر على الجنس البشري؛ أي: أنتم وحدكم المحتاجون على الحقيقة.

ضمير الفصل: في الجانب الإلهي قال: (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ). دخول ضمير الفصل (هُوَ) يفيد الحصر المطلق للغنى والحمد له سبحانه.

التدبر والعمق النفسي: يفيض ابن القيم – رحمه الله - في "مدارج السالكين" عند هذه الآية موضحًا أن الفقر إلى الله فقر ذاتي لا ينفك عن العبد، والغنى لله غنى ذاتي.

بينما يحلل محمد قطب – رحمه الله - الأثر النفسي للآية؛ فالإنسان حين يطغى يظن نفسه مستغنيًا، فتأتي الآية لتهز كبرياءه الكاذب وتضعه في مقامه الحقيقي (الفقر المطلق)، لكنه فقر كريم لأنه موجه (إِلَى اللَّهِ ﷺ)، "الحميد" الذي يعطي فيُحمد، لا إلى غنيّ مستبد يذل خلقه.

*(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ): الجملة شرطية جازمة تفيد التهديد المقترن بالقدرة النافذة. وكلمة بِعَزِيزٍ هنا بمعنى: ممتنع أو شاق وصعب.

إشراقة بلاغية: الباء في (بِعَزِيزٍ) زائدة لتأكيد نفي المشقة والتعذر. وفي هذا كسر كلي لغرور الوجود الإنساني؛ فالبشرية ليست ضرورة كونيّة لاستمرار ملك الله، بل هي محض مشيئة.

*(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ)

وَازِرَةٌ صفة لموصوف محذوف (أي: نفس وازرة)، ووِزْرَ مفعول به. التعبير بـ مُثْقَلَةٌ (نكرة في سياق الشرط) يفيد العموم، أيّ نفس أثقلتها الذنوب.

إشراقة بلاغية فنية: الذنوب هنا لم تعد مجرد أفكار أو سجلات مكتوبة، بل أصبحت "أحمالاً مادية ثقيلة تكسر الظهر" (حِمْلِهَا، لَا يُحْمَلْ مِنْهُ).

يرسم قطب مشهدًا مشحونًا بقلة الحيلة النفسية حيث لا تنفع وشائج القربى؛ (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس:٣٤-٣٧]، لا يجدي حتى لو دعت هذه النفس المثقلة أقرب الناس إليها وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ لاعتذر كلٌ بحمله.

ثم يلتفت النص لبيان من يتأثر بهذا النور: (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

المقابلات الأربع الكبرى (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّور، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ)

ساق الحق سبحانه أربع مقابلات ثنائية بل خمس؛ كونية/نفسية على سبيل المجاز المرسل والاستعارة التمثيلية البديعة:

الطائفة الأولى (أهل الباطل والضلال)، الطائفة الثانية (أهل الحق والإيمان) المعنى التدبري:

الأَعْمَىٰ والبَصِيرُ	فقدان البصيرة مقابل الهداية ورؤية الحقائق.
الظُّلُمَاتُ والنُّورُ	التيه والتخبط المتراكم مقابل وضوح المنهج واستقامته.
الظِّلُّ و الحَرُورُ (الريح الحارة الشديدة)	نيران القلق والعذاب النفسي مقابل برد الطمأنينة والسلام والجنة.
وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ	موت القلوب الحسي والمعنوي مقابل حياة الروح بالإيمان.
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ	سماع هداية وطاعة واستجابة، كما في قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص:٥٦]

إشراقة النظم اللغوي والبلاغي: تكرار "لا" النافية: لاحظ في الآيات تكرار (لا) في قوله: وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ووَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ بينما لم تذكر في الأولى وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ. والسبب البلاغي هو تأكيد أن طرفي المقابلة متنافران تمامًا في كل جزئية ولا يمكن أن يلتقيا في حكم واحد أبدًا.

قلت: الظلمات درجات، وكذلك النور، وكذا الظل درجات، ومثله الحرور، لكن الأعمى هو فاقد البصر، فلا يعلم أن العمى درجات إلاّ في ما يؤتى من البصيرة، فقد يكون المقصود بالأعمى: المشرك، أو يقال: دل على (لا) ما قبلها، والله أعلم.

وكذا في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ) طيف واسع في من يقبل هداية الله وطاعته، دون أي قيد، مقابل طاقة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يهتدي بسماعه هديه صلى الله عليه وسلم إلا من أذن الله بهدايته.

الجمع والإفراد: جمع الظُّلُمَاتُ وأفرد النُّورُ؛ لأن طرق الباطل والضلال متشعبة ومتعددة، بينما طريق الحق والهدى واحد مستقيم لا يتعدد.

إشراقة بلاغية في أسلوب القصر: (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) أسلوب قصر بالنفي والاستثناء (قصر إضافي)، يراد به تسلية النبي ﷺ وتخفيف عبء عدم استجابة الكفار عنه؛ فمهمته تنحصر في البلاغ والإنذار، وليس غرس الهداية قسرًا في قلوب الموتى.

لكن شرف نذارته صلى الله عليه وسلم إنما كانت من قبل انتساب رسالته لربه، فهو الذي أرسله: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)، فحتى أتباعه إنما يشرفون بذلك:

ومما زادني شرفا وتيهـــــــا . . وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي. . وأن صيرت أحمـــد لي نبيا

وليست أمتك بدعاً من الأمم، ولا أنت بدعاً من الرسل: (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) كذبوا رسلهم: (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) أي: بالمعجزات الظاهرة الحسيّة والعقلية)، وَبِـ (الكتب المشتملة على المواعظ والزواجر)، وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (التشريع الواضح الذي يضيء ظلمات الحياة البشريّة).

الخاتمة الرهيبة والوعيد: ينتهي السياق بالالتفات من الغيبة إلى التكلم المفاجئ المرعب: (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا). ولم يذكر العقاب صراحة بل تركه مجهولاً لتهويله بصيغة استفهام إنكاري: (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ). يقول البقاعي: "حذف ياء المتكلم (نكيري) ليتناسب الفاصلة القرآنية من جهة، وليعطي إيجازًا سريعًا يناسب سرعة وعنف الأخذ الإلهي للمكذبين".

*(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ(٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ

يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧))

هذه الآيات في هذا الدرس من سورة فاطر تمثل لوحة كونية، نفسية، وتشريعية هائلة.

المقطع الأول: الإعجاز الكوني واختلاف الألوان: *(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ)

السياق والنظم العجيب: تبدأ الآية باستفهام تقريري يُلفت الحس والروح (أَلَمْ تَرَ). والالتفات هنا مذهل؛ بدأ بضمير الغيبة في اسم الجلالة (أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ) ثم تحول إلى ضمير العظمة المتكلم (فَأَخْرَجْنَا). يقول البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر): "هذا الالتفات لإظهار كمال العظمة والقدرة في لحظة الإخراج؛ فالإنزال ممهد، أما الإخراج ففيه مباشرة القدرة الباهرة لإنبات الحياة."

إشراقة بلاغية: انظر إلى التكرار الصوتي والمفهومي لكلمة مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا. تكررت في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس والدواب والأنعام. هذا الجناس المعنوي واللفظي يرسخ قانون "الوحدة في التنوع". الماء واحد (سبب واحد)، والتربة واحدة، لكن النواتج شتى.

لطيفة نحوية ودلالية: في قوله تعالى: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ).

جُدَدٌ: جمع جُدّة، وهي الطرائق والخطوط الواضحة، فـلماذا قال في البيض والحمر مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا بينما قال في السود وَغَرَابِيبُ سُودٌ دون ذكر الاختلاف؟

يوضح ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) أنّ البياض والحمرة ألوان تقبل التدرج والتركيب (أبيض ناصع، كريمي، أحمر قاني، وردي)، ففيها "اختلاف" في الدرجات. أما "الغرابيب السود" فهي غاية السواد الخالص المتناهي الذي لا تدرج فيه ولا شائبة تخالطه؛ فالغربيب هو الأسود الفاحم.

ويعلق سيد قطب (في ظلال القرآن) قائلاً: "هذه الآية بمثابة معرض إلهي للألوان، تنقل القلب البشري من تتبع ألوان الثمار النامية، إلى خطوط الجبال الراسية، وكأن الأرض ثوب موشّى بألوان شتى، صاغته يد المصور المبدع سبحانه".

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

الربط المقاصدي اللغوي: ما وجه الربط بين اختلاف ألوان الكون وبين قوله (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)؟

هنا يبرز فقه ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – عليهما رحمة الله -؛ فالعلماء هنا ليسوا فقط علماء الأحكام والشرائع (وإن كانوا رأس الأمر)، بل هم العلماء بـ"صنع الله" الذين يتدبرون هذا التنوع الكوني. النظر في اختلاف الألوان والطبائع في الثمار والجبال والناس يقود بالضرورة إلى العلم بعظمة الخالق، والعلم يورث الخشية.

الدقة النحوية (الحصر والتقديم والتأخير): إِنَّمَا: أداة حصر، اللَّهَ: مفعول به مقدم منصوب، الْعُلَمَاءُ: فاعل مؤخر مرفوع.

الحصر هنا حصر حقيقي إضافي، أي: لا يعظم الله حق عظمته، ولا يمتلئ القلب بهيبة جلاله إلاّ العلماء به وبآياته. تقديم المفعول به (اللَّهَ) لتشريف المقصد وسياق التعظيم.

عن عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما قالت: صَنَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا فرَخَّصَ فيه، فتَنَزَّهَ عنه قَومٌ، فبَلَغَ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فخَطَبَ فحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ قال: ما بالُ أقوامٍ يَتَنَزَّهونَ عَنِ الشَّيءِ أصنَعُه؟! فواللهِ إنِّي لَأعلَمُهم باللهِ، وأشَدُّهم له خَشيةً [١].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إني أرى ما لا تَرَوْنَ وأسمعُ ما لا تسمعون أَطَتِ السماءُ وحقٌّ لها أن تَئِطَّ ما فيها موضعُ أربع أصابعَ إلا وملكٌ واضعٌ جبهتَه للهِ ساجدًا واللهِ لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا وما تلذَّذتم بالنساءِ على الفُرُشِ ولخرجتم إلى الصُّعداتِ تجأرونَ إلى اللهِ لوددتُ أني كنتُ شجرةً تُعْضَدُ[٢].

المقطع الثاني: تجارة الروح وفئات الأمة: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ)

انتقل السياق من كتاب الكون المنظور في الآيات السابقة، إلى كتاب الله المستور المتلو (كِتَابَ اللَّهِ).

إشراقة بلاغية في زمن الأفعال: انظر إلى دقة الأفعال: (يَتْلُونَ) فعل مضارع يفيد الاستمرار والتجدد، بينما قال (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا) جاءت بالفعل الماضي. لماذا؟ لأن التلاوة عبادة مستمرة باللسان والتدبر لا تنقطع، أما الصلاة والإنفاق فهي

---

(١) – أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم(٢٣٥٦) .
(٢) – أخرجه الترمذي (٢٣١٢) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦) باختلاف يسير، وضحح سنده ابن العربي في عارضة الأحوذي وغيره.

واجبات ومهمات استقرت وتوطدت في سلوكهم حتى أصبحت كالأمر الفروغ منه المستقر (ماضٍ ثابت).

(تِجَارَةً لَّن تَبُورَ). البوار هو الكساد الشديد المؤدي للهلاك. استعارة لفظ "التجارة" لعمل الآخرة يُخاطب العقلية البشرية التي تحب الربح؛ لكنها تجارة مضمونة لا يدخلها ركود ولا خسارة لضمان المشتري وهو الله.

*(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ) جزاء أعمالهم بالثواب، (وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ) قال ابن عباس: يعني سوى الثواب مما لم تر عين، ولم تسمع أذن (إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُور) قال ابن عباس: يغفر العظيم من الذنوب، ويشكر على اليسير من أعمالهم.

*(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) يعني: القرآن، (هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) من الكتب، (إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)

*(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

هذه الآية هي سُرّة السورة ومحور التفصيل الفكري للنفس البشرية .اصطفاء الأمة (أورثنا الكتاب)

الم لنفسه (المقصر)	مقتصد (الأبرار)	سابق بالخيرات (المقربون)
خلط عملاً صالحاً وآخرسيئا.	(فعل الواجب وترك الحرام)	(تنافس في النوافل والطاعات)

إشراقة بلاغية: (ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ): هو المؤمن العاصي (يفعل الطاعة ويقع في المعصية).

(مُّقْتَصِدٌ): وهو المقتصر على الواجبات التارك للمحرمات، (سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ): هو الذي سما بروحانيته ففعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات.

إشارات لسانية دقيقة: لماذا قيد السبق بقوله بِإِذْنِ اللَّهِ ولم يقيد الظلم والمقتصد بذلك؟

يقول ابن القيم -رحمه الله - في (مدارج السالكين): "لأن السبق مقام عالٍ جداً، يظن صاحبه بجهله أنه ناله بحوله وقوته، فجاء القيد (بإذن الله) لكسر العجب في نفس السابق، وتذكيره بأن سبقه محض فضل وتوفيق إلهي."

موقع "ظالم لنفسه" في البداية: قد يظن البعض أن الترتيب للأفضل فالأقل، لكن الله بدأ بـ (ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ): يقول ابن تيمية: "بدأ بهم لأنهم الأكثر في الأمة، لتطييب قلوبهم وأنهم لا يزالون داخل دائرة الاصطفاء الإلهي (اصْطَفَيْنَا) ما دام معهم أصل الإيمان".

بينما يرى ابن عاشور أنه ترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى في مقام المدح العُلوي.

المقطع الثالث: الجزاء والمشهد الجنائزي للكفر:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

تأمل قوله: (أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ). لم يقولوا "أذهب عنا الجوع" أو "الخوف"، بل "الحَزَن". وهنا نجد اللمسة النفسية التي طالما ركز عليها محمد قطب – رحمه الله - في دراساته للنفس الإنسانية: "إن أشد ما يعانيه المؤمن في الدنيا ليس نَصَب الجسد، بل حَزَن الروح؛ الحزن من تقلب القلب، الحزن من الفتن، الحزن من خوف سوء الخاتمة". فإذا دخلوا الجنة، طارت هذه الغموم النفسية أولاً. سبحان الله.

نفي النصب واللغوب (الفروق اللغوية البلاغية): (لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ).

النَّصَب: هو التعب والمشقة التي تصيب الجسد نتيجة العمل (التعب الخارجي).

اللُّغُوب: هو الإعياء النفسي والفتور والضعف الذي يتبع ذلك التعب (الخور الداخلي).

فنفى الله عنهم السبب الأولي (العمل المجهد) والنتيجة المترتبة عليه (التعب النفسي والبدني). ودخل الفعل (يَمَسُّنَا) ليفيد أنه حتى مجرد المماسّة الخفيفة للتعب أو اللغوب منبوذة في تلك الدار.

المشهد المقابل مشهد الجحيم والحوار اليائس (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ).

الصورة السمعية اللسانية (الاصطراخ): صيغة الافتعال: يَصْطَرِخُونَ أصلها (يصْترخون) قلبت التاء طاءً لتناسب الصاد المخفومة.

الاصطراخ في لغة العرب ليس مجرد صراخ، بل هو صراخ متصادم، شديد، يتعالى فيه صوت الصارخين فوق بعض، وفيه استغاثة بائسة مستمرة.

وفي قصة موسى في سورة القصص قال الله تعالى: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) [القصص:١٨].

والاستنصار بالأمس قال عنه سبحانه قبلها: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) [القصص:١٥].

المحاجة السياقية والمقصدية: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ).

هذا تقريع توبيخي؛ العمر هو الحجة البالغة. كم هذا العمر؟ نقل المفسرون عن الصحابة أنه سن الأربعين أو الستين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أعذَرَ اللهُ إلى امرِئٍ أخَّرَ أجَلَه حتَّى بَلَّغَه سِتِّينَ سَنةً[١]..

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أعمارُ أمتي ما بين الستينَ إلى السبعينَ وأقلُّهم مَنْ يَجُوزُ ذلك[٢].

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ): اختلف فيها أساطين البلاغة؛ قيل هو الرسول ﷺ، وقيل هو الشَّيْبُ (بياض الشعر في الرأس) الذي ينذر برحيل العمر. وما أجمل الربط هنا! بدأ الله السورة بذكر الجبال ذات جُدَدٌ بِيضٌ (طرائق بيضاء) كأنها شيب في رأس الجبل، وختم بـ النَّذِير الذي هو شيب العمر؛ ليتوافق البدء الصوري الكوني مع الختام الشعوري النفسي.

خلاصة: إن النظم في هذه الآيات ينتقل بسلاسة من النظر المادي للألوان المبهجة، إلى التشريح القلبي لأصناف البشر، لينتهي بالمآلات الحتمية: دار مَقَامة لا حزن فيها ولا تعب، مقابل دار اصطراخ وعذاب لا يُخفف، مما يجعل النص وحدة موضوعية ومقصدية هائلة تأخذ بمجامع القلوب.

*(إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا

(١) – أخرجه البخاري (٦٤١٩)، من أفراد البخاري على مسلم.
(٢) – أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه(٤٢٣٦) وقال في الدرر السنية: من غرائب حديث الحسن بن عرفة.

مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا(٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا(٤٥))

تستكمل سورة فاطر في الدرس الأخير هذا الإيقاع الهائل الذي يربط غيب السموات بمكنونات الصدور، ويمد الخيوط بين سنن الكون وسيرورة التاريخ البشري ومآلات الإنسانية.

الله سبحانه هو المحيط بالسر والعلن: (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

الربط السياقي اللطيف: في الآية السابقة للدرس صرخ أهل النار: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا)، فجاءت هذه الآية كالتبرير والتعليل لعدم الاستجابة لهم؛ فالله يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم خبايا نفوسهم، وأنهم لو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه.، (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:٢٧-٢٨].

إشراقة بلاغية: انتقل النص من وصف الوصف (عَالِمُ)، اسم فاعل مضاف يفيد اتساع العلم بالخارج الكوني، إلى صيغة المبالغة (عَلِيمٌ)، التي تفيد عمق العلم واستغراقه للداخل النفسي المستور.

أمّا دلالة قوله سبحانه: (بِذَاتِ الصُّدُورِ)، فيذكر ابن القيم – رحمه الله - أنّ "ذات الصدور" هي الخواطر، النوايا، والخلجات اللصيقة بالمضغة (القلب) لدرجة الصاحب لصحابه (أي صاحبة الصدور)، فالله عليم بما تلازمه الصدور وتخفيه قبل أن يظهر عملاً أو نطقاً.

استخلاف العبء ومسؤولية الاختيار: *(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ

كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا): لاحظ جمال النظم والمقابلة: تفيد كلمة خَلَائِفَ (جمع خليفة) أن الله أورثكم الأرض جيلاً بعد جيل لتسيروا فيها بالحق والعدل.

إشراقة بلاغية: قوله تعالى: (فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ): تقديم شبه الجملة (عَلَيْهِ) (الجار والمجرور) على المبتدأ يفيد الحصر والضرار الخاص؛ أي: وبال كفره وضيق عاقبته عائد عليه وحده، لا يتعداه إلى غيره، ولا يضر الله شيئاً.

التقسيم والترتيب التكراري: (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا).

لماذا كرر الجملة مرتين؟ يقول ابن عاشور: "الزيادة الأولى (مَقْتًا) أثر نفسي غيبي في العُلُو وهو بغض الله الشديد لهم، والزيادة الثانية (خَسَارًا) هو الأثر العملي الواقعي في الدنيا والآخرة بتضييع رأس مال وجودهم". فالتكرار هنا لتنويع جهتي الخسارة (خسارة الآخرة بالمقت، وخسارة الذات بالهلاك).

المحاجة العقلية وإبطال المزاعم: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا).

الأدب الحواري والتحدي البلاغي: الأسلوب هنا تهكمي تعجيزي؛ أضاف الشركاء إليهم شُرَكَاءَكُمُ إشعاراً بأنهم شركاء في مخيلتكم وتسميتكم فقط، وليسوا شركاء لله في الواقع.

القراءة اللسانية للأدلة: سلك النص في إبطال الشرك مسلكين (عقلي كوني، ونقلي توثيقي):

الدليل العقلي الكوني: (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)، أي: هل ساهموا في خلق الأرض أو في البناء العلوي؟

الدليل النقلي التوثيقي: (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ): هل لديهم صك أو وحي إلهي يبرر شركهم؟

الالتفات البلاغي الصادم: بعد أن كان الخطاب مباشراً معهم توبيخاً (أَرَأَيْتُمْ.. أَرُونِي) التفت السياق فجأة إلى الغيبة ذمّاً وإعراضاً عنهم: (بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا). يقول البقاعي: "عدل عن خطابهم لبيان أنهم سقطوا من رتبة الخطاب الشريف، وأصبحوا يُذكرون كعبرة للسامعين، وأن تسويل كبرائهم لضعفائهم هو سراب وخداع متبادل."

الإمساك الكوني والتلطف الإلهي: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

الرواسي الكونية: ينقلك سيد قطب – رحمه الله - هنا إلى الفضاء الكوني الهائل: "الآية تعرض مشهداً كونياً ترتجف له المشاعر؛ الأجرام، المجرات، الكواكب السابحة في الفضاء بلا عمد، من يمسكها من التشتت والاضطراب والزوال الشامل؟ إنها يد القدرة، فكيف تتركون هذا الإمساك العظيم وتلتفتون إلى أصنام عاجزة؟."

التحليل النحوي الدقيق لـ (إنْ): (وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ).

(إنْ) هنا: نافية بمعنى (ما)، (مِنْ): حرف جر زائد لاستغراق النفي وتأكيده قطبياً.

(أَحَدٍ): فاعل مجرور لفظاً مرفوع محلاً. والمعنى: ما يمسكهما أي أحد على الإطلاق إن تخلى الله عن حفظهما، كما قال في الطير: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) [الملك:١٩]، أي: أن الله سبحانه وتعالى هو وحده من يحفظ الطيور في الهواء ويمنعها من السقوط أثناء تحليقها.

الختام بالأسماء الحسنى: (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا). ما وجه ختم آية الإمساك الكوني بالحلم والمغفرة؟ يفسر ابن تيمية – رحمه الله - هذا الربط البديع بأن زوال السموات والأرض يستحقه أهل الأرض بسبب كفرهم وفجورهم (كما في آية تكاد السموات يتفطرن منه)، ولكن حلم الله ومغفرته هما اللذان يحولان بين الكون وبين الزوال والدمار الفوري عقوبة للبشر.

التناقض النفسي والنكوص عن الحق: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

إشراقة بلاغية النفسية: يحلل محمد قطب – رحمه الله - هذه النفسية الجاحدة: "هو طبع الهروب الإنساني؛ فالمشركون قبل البعثة كانوا يعيبون على اليهود والنصارى تكذيبهم لأنبيائهم، ويقسمون بأغلظ الأيمان أنهم سيكونون أرشد وأهدى منهم، فلما وُضعوا أمام المحك العملي وجاءهم الرسول ﷺ، صدمهم الحق في شهواتهم وكبريائهم، فارتكسوا ونفروا."

وهذا تماماً كما فعلت يهود: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [البقرة:٨٩]، كان يهود المدينة قبل مبعث النبي محمد ﷺ يجدون في كتبهم (التوراة) صفات نبي آخر الزمان. إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه، نتبعه

ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله ص أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: تعلمن والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه [١].

المفارقة البلاغية العجيبة: (مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا). إسناد زيادة النفور إلى النذير؛ فالنذير يدعو للهداية، لكن لما واجه نفوساً مريضة، كان سبباً في زيادة نفورهم وتمردهم، تماماً كالمطر النقي يحيي الأرض الطيبة، ويزيد الأرض الخبيثة نكداً وعفونة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ مَثَلَ ما آتاني اللهُ مِن الهدى والعِلْمِ كمثَلِ غيثٍ أصاب أرضًا فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قبِلت ذلك فأنبتَتِ الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ وأمسَكتِ الماءَ فنفَع اللهُ بها النَّاسَ فشربوا منها وسَقوا وزرَعوا وأصاب منها طائفةً أخرى إنَّما هي قيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً فذلك مَثَلُ مَن فقُه في دينِ اللهِ ونفَعه ما بعَثني اللهُ به فعلِم وعمِل، ومثَلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا ولم يقبَلْ هدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به [٢].

المكر السيئ وسنن التاريخ الثابتة: (اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا).

سلوك الجاحدين ومآله:

الدوافع النفسية	النتيجة الحتمية
(استكباراً ومكر السيئ)	(لا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله)

اسْتِكْبَارًا: مفعول لأجله (أي فعلوا ذلك ونفروا لأجل الاستكبار)، أو حال من فاعل (نفورا) الآية السابقة.

(وَمَكْرَ السَّيِّئِ): الأصل في اللغة (المكر السيئ) بإضافة الموصوف إلى الصفة، أو هي على نية إضفاء الطابع الذاتي على المكر؛ فالسيئ هنا صفة جرت مجرى الأسماء، لتصوير أنّ مكرهم التمس غاية السوء والخبث.

---

(١) – [تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري](٢/ ٣٥٣) ، وانظر الدرر السنية.

(٢) – أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)، وأحمد (١٩٥٧٣) واللفظ لهم.

(فَهَلْ يَنظُرُونَ) أي: ينتظرون (إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ) أي: إلاّ أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار،

القانون المقاصدي السنني: (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا).

فرّق ابن عاشور بين التبديل والتحويل، فقال: التبديل: تغيير السنّة أو العقوبة بغيرها، كأن يُرفع العذاب ويُوضع مكانه رخاء بلا مبرر.

أمّا التحويل: فهو نقل العذاب من الأمة المستحقة له إلى أمة أخرى بريئة، فالسنن الإلهية صارمة، لا تتبدل في ذاتها، ولا تتحول عن طريقها القانوني التاريخي، ومن يمكر بالحق يذوق وبال مكره لا محالة.

السير الكوني والقدرة المطلقة: (وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

سياق الاحتجاج بالآثار: الانتقال من النظر العقلي إلى النظر البصري الميداني في مصارع الغابرين (عاد، ثمود، فرعون).

نفي العجز (الكلي: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ).

إشراقة بلاغية: لام الجحود: (لِيُعْجِزَهُ) الداخلة بعد كونٍ منفي (وَمَا كَانَ) تفيد المبالغة المطلقة في نفي العجز والضعف.

نكّرت كلمة (شَيْءٍ) وسبقت بـ (مِنْ) الاستغراقية لتشمل أحقر الأشياء وأكبرها في هذا الوجود؛ فقدرته محيطة نافذة.

ختام السورة والرحمة الممهلة: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا).

أي: لو أخذ الله البشر بذنوبهم فوراً، لدمّر الأرض كاملة حتى لا تبقى دابة واحدة تسعى (لأن شؤم معاصي ابن آدم يُهلك الحَرْث والنسل). ولكن المقصد الإلهي قائم على الابتلاء والإمهال، لا الإهمال.

إشراقة بلاغية: (عَلَىٰ ظَهْرِهَا): حذف الأرض للعلم بها، فالضمير يعود على الأرض المفهومة من السياق، والتعبير بـ "الظهر" كناية بديعة عن استقرار المخلوقات وحركتها فوق القشرة الأرضية.

إيقاع المفاجأة والختام المفزع المريح: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)، قال ابن عباس رضي الله عنها: (بعباده بصيرا) يريد: أهل طاعته وأهل معصيته.

إشراقة بلاغية: لم يقل (فيعذبهم) بل قال بَصِيرًا، يقول البقاعي: "هذا الختام بصفة البصر بَصِيرًا يجمع بين الوعد والوعيد في منتهى الكناية البليغة؛ البصير يعلم المحسن فيجزيه بإحسانه، ويعلم المسيء والمنافق والظالم فيعاقبه بعدله، فلا شك أن العباد واقفون تحت رقابة الله العظيم ترقباً للجزاء الأخير" ولكن لا يشعرون.

المراجع